البحث عن مدننا
في مدنٍ ومنافٍ أخرى

شهادات أدبية عن المدينة وأحوالها

جمال شحيد، جمانة الياسيري، جولان حاجي، رشا عمران، عدي الزعبي، عروة مقداد

تقديم: حسن داوود

البحث عن مدننا في مدنٍ ومنافٍ أخرى

شهادات أدبية عن المدينة وأحوالها

جمال شحيد، جمانة الياسيري، جولان حاجي، رشا عمران، عدي الزعبي، عروة مقداد

تقديم: حسن داوود

البحث عن مدننا في مدنٍ ومنافٍ أخرى

شهادات أدبية عن المدينة وأحوالها

المشاركون: جمال شحيد، جمانة الياسيري، جولان حاجي، رشا عمران، عدي الزعبي، عروة مقداد

تقديم: حسن داوود

لوحة الغلاف ولوحات الداخل: إبراهيم بريمو - مجموعة «العالم الكبير»

تصميم الغلاف: إبراهيم بريمو

ISBN: 8 - 38 - 540 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2018

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع	اتجاهات - ثقافة مستقلة
سوريا - دمشق - ص ب: /9838/ هاتف-فاكس: /6133856/ 11 00963 جوال: 00971557195187 البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net fb.com/Adwan.Publishing.House twitter.com/AdwanPH	**المكتب الرئيس:** Boulevard Louis Schmidt 119, box 3,1040, Etterbeek, Belgique **المكتب الإقليمي:** شارع يونس جبيلي، رقم 30، بناء حنا، درج جعارة، مار مخايل، أشرفية، بيروت، لبنان هاتف: 770 442 1 (0) 00961 موبايل 35 97 13 71 00961 البريد الالكتروني: info@ettijahat.org الموقع الالكتروني: www.ettijahat.org fb.com/Ettijahat/

جميع الحقوق محفوظة لاتجاهات- ثقافة مستقلة. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو أو بأية طريقة سواء كانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر.

تعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المشاركين وليس بالضرورة عن رأي الناشر. لا تتحمل دار ممدوح عدوان أو اتجاهات-ثقافة مستقلة أي مسؤولية عن المعلومات الواردة في هذا الكتاب

مع توزع الفنانين والممارسين الثقافيين السوريين في أرجاء العالم، يبدو أن العلاقة مع مدنهم السورية التي غادروها أو قرروا البقاء فيها، ظلت جوهرية وأساسية، ولكنها انتقلت إلى مستويات أخرى من الألم والأمل، والتي تنوس بين مطرقة الشوق والحنين والفقد، وسندان الغضب واليتم وقطع الجذور.

استوطن السوريون خلال السنوات السبع الماضية مدناً جديدة. بدؤوا خلال ذلك رحلة بحثٍ عن مدنهم القديمة، استقروا في بيوت جديدة، عاشوا وأقاموا فيها لفتراتٍ قصيرة، ساروا على أرصفة جديدة، أو أعادوا اكتشاف الأرصفة القديمة، ثم أعادوا تعريفها واكتشافها في مدن ومقرات جديدة. حاولوا ابتكار دمشق، درعا، حمص، اللاذقية، طرطوس، مصياف، ودير الزور خاصتهم في مدن جديدة، وحاولوا رسم خرائط جديدة لهم فيها، وأعادوا ابتكار المدينة بين القاهرة، بيروت، إسطنبول، برلين، باريس، ومدن أخرى.

كيف هي صورة المدينة الجديدة؟ كيف تظهر المدن السورية في يوميات المغترب؟ ما الذي يبقى من ذاكرة الأمكنة؟ كيف يمكننا إعادة ابتكار ما خسرناه؟ وما هي العلاقة مع المدن الجديدة؟ وكيف تغيرت العلاقة مع المدن السورية اليوم للذين ما زالوا يعيشون فيها؟

قامت «اتجاهات» بتوجيه دعوة لستة فنانين وأدباء لتقديم شهادات صادقة حول المدن ومناقشة التحولات السياسية والاجتماعية والفنية حول هذا الموضوع، وتم تقديم مقاطع من هذه الشهادات في لقاء غني وحميم مع الجمهور خلال فعاليات ملتقى *مينا : محطات لقاء وعبور فنية في بيروت* . واليوم يسعدنا أن نتشارك معكم النسخة الكاملة من هذه الشهادات.

اتجاهات - ثقافة مستقلة

المهم أن تتخفّى وأن تحتاط

حسن داوود

أحسب أن ليس من بلد واحد من بلدان العالم لم يؤتَ على ذكره في الشهادات التي يضمها هذا الكتاب. كنت بدأت بتسجيل ما يمرّ اسمه منها على ورقة بيضاء: كوبنهاغن، جورجيا، أدنبره، باريس، اليونان، أميركا، عمان، القدس... خالطاً العواصم بالدول تبعاً لما وردت به في النصوص التي أقرأها. لم أستمر في ذلك على أية حال، إذ رأيت أن الذهاب في التعداد إلى آخره صار أقرب إلى تسلية رياضية منه إلى غاية تفيد في رسم خارطة منافي السوريين. لقد حلّوا في كل مكان، حتى في تلك البلدان التي قلما كان ذكرها يتردّد بينهم، فنشأ لهم فيها ما يشبه الجاليات. هذا مخالف لما عرفه أحدنا من هجرات، حيث يكون المقصد واحداً في العادة: الهجرة إلى العالم الجديد مثلاً بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أو ما سمّي، في فترة مقاربة لتلك، «هجرة الشوام إلى مصر»...إلخ.

ولنضف إلى ذلك أن المهاجرين هذه المرة هم قليلو المعرفة بالبلدان التي توجهوا إليها؛ ذاك أن أسباباً كثيرة أبقتهم حيث هم، في بلدهم، غير معتادين، أو غير قادرين، لأسباب كثيرة، على مغادرته. واحد من هذه الأسباب هو هاجس من يؤذنون بالسفر أن معرفة الخارج مدمِّرة للداخل. هي هجرة مفاجئة إذاً، اضطرارية، وشاقة إلى حدّ أننا قد نقع في لعبة التعداد نفسها إن بدأنا في ذكر طرق المغادرة والهروب. في أحيان،

كما نعلم، كان الأمل ببلوغ شاطئ الأمان ضئيلاً؛ في أحيان كانت الطرق البرية، طرق التهريب، قاتلة. أما الوصول فلم يكن أرحم إذ، هنا، في لبنان وهو الملجأ الأقرب، ما زال الذين وصلوا من خمس سنوات أو ست كأنهم حطّوا رحالهم الآن. الخيم التي نصبت على عجل لم تزل كما هي، وحيث هي. وعلى الرغم من ذلك، هناك من يحذّر الملتجئين من أنهم ينبغي ألا يكونوا هنا.

وفي كل مكان كان الوصول يجابَه بالمنع، فإن تحقّق على الرغم من ذلك، ستكون الشبهة والمطاردة بين شروط البقاء. بين الصور التي تنقل لنا مشاهد من تلك الإقامة ذاك الفيلم اليوناني الذي عرض على إحدى الشاشات العربية أكثر من مرّة. إنها صورة جديدة للاجئ السوري الذي ينبغي له أن يغادر على الفور، طوعاً أو كرهاً، لأن البلد الذي نزل فيه، أو ظنّ أنه أقام فيه، ليس إلا منفى مؤقتاً. ثم هناك الباسبور، الأكثر حضوراً والأكثر ذكراً بين باسبورات العالم كلها. سواء كان في يد حامله، أو لم يكن. في فيلم آخر، لبناني هذه المرّة، يُعترض الشبان السائرون في الليل وهم يتداولون بشأن هجرتهم التالية، على غرار الهجرة التالية من اليونان، ليُسألوا عن جوازات سفرهم التي ستؤكّد لمعترضيهم أنهم سوريون. وأنهم، تالياً، لا يحقّ لهم التجوّل في الليل، بعد الساعة الثامنة. هذا لا يقوله المُعترض المتعقّب في خفاء ذلك الزقاق البيروتي الضيق فقط، بل هو مخطوط على يافطات رفعتها قرى كثيرة، علناً وجهاراً.

«الباسبور» الذي يضعه رجل الأمن فوق «الباسبورات»، هناك في أعلى الكومة. هي كومة الجوازات السورية، جوازات

المكسورين والمذلولين، والحاقدين أيضاً، كما في واحد من النصوص المنشورة هنا في الكتاب. وهم الخائفون كذلك من حكومات البلدان ومن أهلها أيضاً، وكذلك «من شركات الطيران ومن السوريين الآخرين»، وإذ يبدو لهم أن بلدهم هو الرقعة الرخوة من الأرض، وأنهم، وهم من دونها، فاقدون لأي شعور بالاحتماء، سيكون عليهم أن يخافوا أيّ شيء ينذر بخطر قد يجري في أي مكان، بل من أيّ شيء قد يحمله حدث عادي حيث يضاف إلى خوفهم مما جرى تعداده أعلاه، «...الخوف من الانتخابات التركية والأميركية والفرنسية والنمساوية...».

ما ينبغي أن يلتزمه الخائف من البلد الغريب هو الخفاء والحيطة؛ أن يُقيم ويسلك ويعيش كأنه ليس هنا، وأن يكون خفيفاً أيضاً، على غرار أولئك الذين، في ذلك الفيلم اليوناني، ظلّت تداهمهم دورية الشرطة فيما هم يعرضون للسيارات العابرة الحاجيات والدمى المستوردة. وبعد ذلك يأتي المطارِدون الآخرون، الأكثر عنفاً، والذين تشكّلوا في جماعات منظّمة ليبنى إرهابهم على قواعد عصبية جامعة. الخفاء والحيطة إذاً: «تركتَ زرّ الجرس فارغاً من اسمك، محترساً كي لا يتعرّف إليك أحد من الجيران». بصيغة الأنتَ يكتب الكاتب واصفاً أناه. وهو يستمر في وصفه لعيشه، باقياً على إصراره بجعل نفسه في مكان شخص آخر، أو رائياً نفسه من مسافة. أو إنه شخصان، فردان اثنان، واحد كان يعرف نفسه، وآخر يديم النظر إلى ما دُفع إليه ذاك الذي بات قرينه.

«ينقبض قلبك مرتقباً السؤال عن المكان الذي أتيت منه في سوريا». كأن هذه «التهمة» قد صارت معمَّمة، هوية لوافدين ينبغي ردّهم إلى المكان الذي قدموا منه، أو احتجازهم حتى يتطوّع آخرون ويقرّوا بالحاجة إلى استقبالهم.

النصوص التي يضمها هذا الكتاب هي محن وتجارب عيش شخصية في المنافي، أو ربما في البحث عن المنافي، أو في الهروب من المنفى الأول إلى المنفى الثاني، أو الثالث أيضاً. تجارب شخصية عن زمن هجرة لم تستقر بعد. أيام أولى للهجرة، أو سنوات أولى لا فرق، طالما أن ما تقوله النصوص مليء بالضياع والغضب وبالاحتجاج القويّ على ما يرتفع في وجوه المتخبّطين على حدود البلدان، منذهلين مما يلقونه وما لم يسبق لهم أن اختبروه من قبل.

هي المحنة التي ما زالت تحفل بالغضب الذي يسم البداية، على الرغم من انقضاء سنوات ستّ على هجرة أوائل الفارين من الحرب. كأنها بداية متصّلة، حيث لم يتوقّف قدوم القادمين ولم ينقطع أبداً. لا أعرف مدى شوط التكيّف الذي بلغه الصديق الذي هاجر من ثلاث سنوات أو أربع، وفي أي نقطة هو الآن من المسافة بين سوريا وفرنسا. هل بات أقرب إلى هناك وأبعد عن هنا. هل قطع شوطاً في دراسة اللغة؟ زوجته، هل تكيّفت هي أيضاً وهل صار لها صديقات من تلك المدينة الفرنسية، أم أنها تنتظر مجيء عائلات سورية لتكون لها حياة اجتماعية كما يقال؟

بل ماذا يفعل هذا الصديق، وهو هناك، بما سبق أن تحصّل له من عمره. مع مَن سيشترك في تذكّر ذلك. الماضي الشخصي

الذي سيظل هناك في الذكريات «تلك التي لا تفيد هنا، ولا تستعمل» كما في أحد النصوص.

وهل تخلّص أولئك الأوَلون من غضب البداية ولعناتها؟ هل بات المهم، أولاً، «أن ننجح في الامتحان الثاني للغة الدانمركية» كما في إحدى الشهادات؟ أم سيظل جاثماً ذلك الشعور بأن ما نكتسبه هنا نخسر ما يماثله، هناك في سوريا؟ ثم هذا التوازن المقلق بينما ينبغي التمسك به من الحياة السابقة وما يجب اكتسابه من الحياة الجديدة. أو أن ما سي‌قيم ذلك التوازن هو الخسران في الحالين حيث، كما يقول المتكلم عن نفسه بصيغة الأنت: «خسرتَ كل شيء من دون أن تكون قد ملكت شيئاً في ما مضى»، أو كما يقول نصٌ آخر لمنفيّ أو منفيّة أخرى: «جميع الأمكنة استعارة عن المدينة التي ولدت فيها، والتي لم تكن يوماً ملكك أصلاً».

(*) السطور أعلاه كتبت قارئة، ومستلهمة، الشهادات الست المشاركة في أمسية «في البحث عن مدننا في مدن ومنافٍ جديدة» - ضمن فعاليات ملتقى مينا: محطات لقاء وعبور فنية من تنظيم مؤسسة اتجاهات-ثقافة مستقلة، 1 كانون الأول/ ديسمبر 2017، دار النمر للثقافة والفنون- بيروت.

فضاءات المدينة قديماً وحديثاً

د. جمال شحيّد

احتلت المدينة في الرواية الأوروبية حيّزاً كبيراً في أثناء القرن التاسع عشر، بعد الهجرة الريفية الهائلة نحوها. فهذا زولا في روايته «**نانا**» مثلاً يصور لنا مدينة باريس كمدينة رجيمية على غرار المدن التي لعنها الله مثل سدوم وعمورة وبابل. وفي روايته «**جوف باريس**»، يرسم لنا المدينة كغول هائل يبتلع أولاده. وتظهر الصورة السلبية نفسها في «**أزهار الشر**» لبودلير، ولا سيما في قصائده المعنونة بـ«لوحات باريسية» (Tableaux parisiens)؛ فإذا بباريس متاهة ومباءة ومفسدة وماخور. وفي قصيدته «دعوة إلى السفر» (Invitation au voyage) تجاوزٌ لهذه المدينة الرجيمية وسفرٌ إلى مدن الحلم والخيال. وكذلك فعل «جيمس جويس» عندما عبّر عن كرهه لمدينة «دبلن» ولأهلها. وهذا ما فعله تولستوي وبالزاك ودوستويفسكي وبروست عندما راحوا يتذكرون الحياة في القرية ويقارنونها بجحيم المدينة.

ومنذ فجر الرواية العربية، لعبت المدينة دوراً أساسياً، إذ أعارها الروائيون النهضويون اهتماماً خاصاً، معتبرين أن النهضة والحضارة والمدنية مرتبطين أصلاً بالمدينة. فكانت دمشق النواة الروائية في «**زنوبيا**» (1871) و«**الهيام في**

جنان الشام» (1874) لسليم البستاني، ثم القدس في رواية فرح أنطون «**أورشليم الجديدة**» (1904)، ثم بغداد في رواية «**الأمين والمأمون**» لجرجي زيدان، والقاهرة في روايته «**شجرة الدر**» (1913)، والقاهرة وباريس في رواية «**حديث عيسى بن هشام**» (1902) لمحمد المويلحي. ولكن مع انتشار الأدب الرومانسي، ركزت الرواية على الريف الفردوسي وعبّرت عن كرهها للمدينة، كما فعل جبران خليل جبران في «**الأجنحة المتكسرة**» (1911) ومحمد حسين هيكل في «**زينب**» (1914) ومحمود تيمور في «**نداء المجهول**» (1943). ولكن الروائيين العرب عادوا إلى مواضيع المدينة بزخم شديد بُعيد الحرب العالمية الثانية، إذ صارت الهجرة الريفية إلى المدن الموضوعَ الأثير في الرواية.

فلماذا كل هذا الاهتمام بالمدينة؟ أراد الروائيون أن يستقرئوا التاريخ عبر المكان والزمان الروائيين. وبما أن المدنيّة في تراثنا ولغتنا ارتبطت بالمدينة، اعتبر الروائيون المدينة المكان الأساس الذي يُصنع فيه التاريخ. ففي العواصم تستقر الأنظمة السياسية بمؤسساتها ووزاراتها وجامعاتها ومتاحفها ومنشآتها الثقافية والفكرية. وفيها تستقر السلطات المدنية والدينية. ولكي يثبت الحكام والفاتحون مآثرهم، أطلقوا أسماءهم بخاصة على بعض المدن والحواضر كالإسكندرية والناصرية والإسماعيلية وبور سعيد... كما أطلقوها على الشوارع والمصانع والمنشآت والمشاريع. ولكي يخلّدوا أسماءهم في «التاريخ» نشروا صورهم وتماثيلهم في كل مكان، فحوّلوا بلدانهم إلى «طواطم» تلهج باسمهم؛ ولكن التاريخ لا يبقي في سجلاته

إلا من يستحق أن يبقى فيها. فكلما بلغ الوعي التاريخي في الرواية درجة عالية، كلما عبّر فعلاً عن إدراكه البعد التاريخي، وكلما كانت رؤيته للعالم ثاقبة وحصيفة.

يضاف إلى ذلك أن كثيراً من الروائيين الريفيين هم الذين أعاروا اهتماماً خاصاً بالمدن التي وفدوا إليها – ويشذّ على هذا الرأي كاتبنا الكبير نجيب محفوظ الذي بقيت القاهرة والإسكندرية عنده مكانيه الوحيدين– فأضفوا على المدينة خيالاً جديداً وتعابير جديدة ورؤية جديدة لا تخلو من المقارنات مع حياة الريف وفضاءاته. وتستحق هذه الظاهرة دراسة سوسيولوجية معمقة تُبرز السمات الخاصة الناجمة عن هذه الهجرة.

صور مدينية في الرواية العربية:

إذا عدنا إلى الروايات التاريخية العربية، نلاحظ – في تصورها للمدينة – إنها رسمت جغرافيتها ومخططها بأمانة شديدة، لأنها بعامة كانت تريد تعليم التاريخ بأسلوب روائي جذاب. فهذا جرجي زيدان في روايته «**الأمين والمأمون**»، يقدم مخططاً جغرافياً لبغداد مدينة المنصور نقله عن مخطوطات قديمة تصور بغداد ما بين 150 و300 للهجرة. فأوضح قصده من البداية: «إن ما سأسوقه عن بغداد ليس من شطح الخيال، وإنما هو مثبت في كتب التاريخ والجغرافية. فبغداد الروائية هي بغداد التاريخية. ولم أفعل ذلك إلا حرصاً مني على الصدقية وعلى احترام التاريخ». ونجد التوجهَ نفسه تقريباً عند فرح أنطون ومعروف الأرناؤوط وغيرهم.

أما هاجس المقارنة بين مدينة الروائي وبين مدينة أخرى، هي باريس في حالات عدة، فقد ورثها الروائيون من رفاعة الطهطاوي في كتابه «**تخليص الإبريز في تلخيص باريز**»، إذ إنه لم ينفك عن مقارنة المدينة الغربية بالمدينة العربية (القاهرة) في تضاريسها ومياهها ومناخها وجسورها وكنائسها ومساجدها، وفي نظامها السياسي، وعادات سكانها في طعامهم وشرابهم وملبسهم ولهوهم وعملهم. ونجد هاجس المقارنة هذا عند المويلحي، وبخاصة في القسم الثاني من «**حديث عيسى بن هشام**»، كما نجده عند علي مبارك في كتابه «**علم الدين**»، ما يدل على أن الكتّاب العرب اهتموا كثيراً بمقارنة مدينة الأنا بمدينة الآخر، أو قل بمقارنة الأنا بالآخر، لإظهار نقاط التباين والتلاقي بين الحضارتين العربية والغربية.

ونجد أحياناً بعض الروائيين يقارنون بين مدينتين عربيتين ويطلقون على كل منهما أوصافاً مختلفة. فالقاهرة في ثلاثية نجيب محفوظ هي مدينة العمل والنضال الإيديولوجي والصراع الطبقي والأجيالي، بينما الإسكندرية في رواياته الأخرى هي مدينة الحلم والانحسار والهروب والاستعداد للموت. كذلك يقارن بعضهم المدينة العربية بالريف العربي الذي يحمل بعامة بصمات الخوف والتخلف والبؤس. يقول غالب هلسا في روايته «**سلطانة**»: «ليل القرية مشحون بالخوف. إنه جزء من تراث القرى الجبلية، التي كانت معرضة لغزوات البدو المحيطين بها. والليل مسكون. والموتى ينهضون من قبورهم، عندما تغيب الشمس، ويزحمون القرية... ويزدحم الليل، خاصة الأماكن المهجورة، والكهوف، بأرواح شريرة ومزعجة، تباغت من يقترب

لترعبه، أو لتقوده إلى الجنون». تسيطر على وصف القرية حركة نابذة، بينما يصف المدينة متأثراً بحركة جاذبة ومستحوذة. يقول في رواية «**الضحك**»: «فجأة أخذت أشم رائحة بغداد... وتلك الرائحة أول ما يقابل القادم: رائحة السمك ومياه جارية، رائحة ورود ميتة، وأجساد بشرية في حجرات مغلقة. في الخارج الشمس الشرسة، ورائحة المدينة، وأنا في قلب ذلك أرفض، وأتحدى، وأزدري. ولكن بغداد كانت تنفذ إليّ من آلاف المسام حتى أصبحت تحت جلدي، وتحت أهدابي... بغداد تأخذ القادم إليها من القلب، تعجنه، تفسخه، ثم تعيد تركيبه، حتى ليصعب عليه أن يتعرَف إلى نفسه».

أما طه حسين في كتاب «**الأيام**»، فيصف حياته البائسة في كل من الريف والمدينة، ولكنه لم يبدأ بتحسس حضارة المدينة إلا عندما أهمل الأزهر وراح يتردد إلى الجامعة المصرية. وعندما يتكلم عن باريس في الجزء الثالث من أيامه، يشعر بمنتهى السعادة. ويتلمّس هذا الكاتب الأعمى المكانَ لا ببصره، بل بباقي حواسه اليقظة وبصيرته وخياله. فمن المكان يطل طه حسين على العالم ليكتشف الناس والمجتمع ويحلل السلوك البشري. وهذا نجيب محفوظ في «**زقاق المدق**» ويوسف إدريس في «**قاع المدينة**» ينزلان إلى العالم السفلي من المدينة حيث يتصارع المهمَشون والمرذولون والدهماء، كزيطة والدكتور بوشي وفرغلي. وهذا أيضاً محمد شكري يولجنا إلى طنجة وعالمها التحتي المليء بالمهربين والقوادين والحشّاشين والسكارى والزعران والمومسات والشريرات والفاضلات أيضاً. وتبدو المدينة في

رواياته قطعة من الجحيم تسرح فيها شياطين الليل ومجانين الملذات.

وينقلنا الطيب صالح في «**موسم الهجرة إلى الشمال**» إلى لندن الخارجة من العصر الفيكتوري، لندن المدينة السرابية التي أسرج البدوي السوداني مصطفى سعيد بعيره وحط رحاله فيها. فإذا بها تدفعه إلى الهوس الجنسي وإلى الجريمة. آن هامند وإيزابيلا سيمور وشيلا غرينوود انتحرن لأنهن سبحن عكس التيار في عزّ العصر الاستعماري، فعشقن هذا الرجل الأسود الذي زرع فيهن جرثومة العالم الثالث، فاستسلمن لقدرهن، ولكنهن كنَ دائماً، قبل انتحارهن، يكتبن قصاصة من الورق قلن فيها: «مستر سعيد لعنة الله عليك». وحدها جين موريس استطاعت أن تدجّن هذا الثور المتوحش الذي لا يكلّ من الطراد، وحوّلته من صياد نساء إلى فريسة ذليلة مُحتقرة. وعندما فهم مدى الدركات التي هبط إليها مع تلك المرأة الرجيمية، قتلها واستسلم للعدالة.

ومع يحيى حقي في «**قنديل أم هاشم**» تصبح المدينة كناية عن مزار ديني يتصارع فيه حماة المقدس وأنصار الدنيوي. وجمعت شخصية الطبيب إسماعيل هذين الضدين، إلى أن جاء يوم ثارت فيه ثائرته وحطم القنديل المقدس الذي اعتبره مصدراً للخرافة. ولكنّه بعد ذلك بشهر عاد إلى أحضان الدين، متذكراً طفولته وزياراته اليومية لمقام السيدة زينب.

أما الكاتبة غادة السمّان، فتمايز في روايتها «**بيروت 75**» بين مدينتين متجاورتين هما دمشق وبيروت. فترى أن

الأولى محافظة يملّ منها الناس المتطلعون إلى آفاق أرحب، بينما الثانية مدينة منفتحة جداً وربما أكثر من اللزوم في هذا الشرق الحائر بين تراثه الأغبر وحداثته المقتبسة من الغرب.

وفي «**عائد إلى حيفا**» يركّز غسان كنفاني ككل الكتّاب الفلسطينيين على المكان بتفاصيله الدقيقة وأسماء شوارعه وحاراته وتصرّفات الناس فيه. ويصبح بيت سعيد س. في حيفا رمزاً لفلسطين كلها. فالمكان قضيّة، والإنسان قضيّة لا تلعب فيها رابطة اللحم والدم أي دور. وذاكرة المكان يقظة من دون ثقوب، وإن اعتراها النسيان أحياناً.

والمكان عند إدوار الخراط كائن حيّ لأنه يتفاعل مع الإنسان. الإسكندرية هي المكان الحميم إذ ارتبط بالأم والتحم بتاريخ البحر الأبيض المتوسط. أحبّها الخرّاط لأنها عابقة بذكرى الأم والتاريخ الطويل الممتد من مؤسسها إلى الآن، مع كل ما حملته من أمجاد القرون العشرة الأولى بعد التأسيس. ويلهج الخرّاط بذكر مدينته في عدد من كتبه، لأن ترابها زعفران ولأن ماءها العنبر والكوثر.

أما جبرا إبراهيم جبرا وعبد الرحمن منيف فيتكلمان بإسهاب عن مدينة عمورية في روايتهما «**عالم بلا خرائط**»؛ وعمورية هذه ليست العمورية العباسية التي تغنّى أبو تمّام بأمجادها؛ فقد تكون بغداد وقد تكون أية عاصمة عربية، وقد تكون العالم كله. إنها مدينة مفتوحة على المكان والزمان. وفي معظم رواياتهما، يركز الكاتبان على الحيّز المديني. ففي «**سيرة مدينة**» لعبد الرحمن منيف يقول:

«إن المكان، في حالات كثيرة، ليس حيّزاً جغرافياً فقط، فهو أيضاً البشر في زمان معيَن». ويقول في نهاية كتابه «المدينة هي الحياة بتعددها وتنوعها، هي الأمكنة، والبشر، والشجر ورائحة المطر، وهي التراب أيضاً، وهي الزمن ذاته ولكن في حالة حركة. المدينة طريقة الناس في النظر إلى الأشياء، وطريقة كلامهم، كيف تعاملوا مع الأحداث التي وقعت، كيف واجهوها، وكيف تجاوزوها. المدينة هي الأحلام والخيبات التي ملأت عقول الناس وقلوبهم، التي تحققت وتلك التي طاشت ثم خابت، وكم تركت من العلامات والجروح. المدينة هي لحظات فرح الناس وأوقات حزنهم. المدينة هي الطريقة التي تستقبل بها من تحب وتواجه من تعادي. المدينة هي الدموع التي تودّع بها من غادروها، مضطرين، مؤقتاً أو إلى الأبد، وهي البسمات التي تستقبل بها العائدين. هذه هي المدينة وأشياء أخرى كثيرة وصغيرة، فهل يمكن استعادتها؟».

وبغداد في «**البحث عن وليد مسعود**» هي مثل بطلها مدينة زئبقية غامضة، كلما حاولت أن تمسك بها وتحيط بنجومها، كلما أمعنت في الهرب مقهقهة وساخرة من بحثك العبثي عنها. بغداد مدينة متشظية كبطلها وليد الذي، بعد اختفائه، راح صديقه د. جواد حسني يجمع أخباره قطعة قطعة وحجراً حجراً. وعندما اكتملت الصورة بكل تناقضاتها عدل عن مشروعه. تنحسر المدينة الأسرارية، ولا تَرى فيها إلا الغيوم والأحاجي والطلاسم. تنغلق عليك وأنت في داخلها، تصهرك وأنت لا تدري. فالمدينة تسلك سلوك الإنسان، فإن غمُض غمضت، وإن وضُح وضحت.

والصورة التي يقدمها لنا جمال الغيطاني عن المدينة هي صورة أوروبلية مخيفة وفريدة في آن. فالقاهرة المستَشفَة من مشاهدات الرحَالة الإيطالي فياسكونتي جانتي، في «**الزيني بركات**» غيَرت وجهها. يقول الرحَالة: «وجه القاهرة غريب عني، ليس ما عرفته في رحلاتي السابقة... أرى المدينة مريضاً يوشك على البكاء، امرأة مذعورة تخشى اغتصابها آخر الليل... بيوت القاهرة كلها مغلقة، مرعوشة تودَ لو توارت». وبعد سقوط القاهرة تحت الحكم العثماني، يقول فياسكونتي عنها: «في ترحالي الطويل، لم أر مدينة مكسورة كما أرى الآن، بعد انقطاعي عنها غامرتُ ونزلت إلى الطرقات، في الهواء حَومُ الموت بارد... لا قيمة للجدران، الأبواب ملغاة في هذا الزمن». ويشاهد فظاعات الغزو العثماني، مُسقطاً على ذلك الغزو، كل غزو خارجي تتعرض له المدينة، كلُّ مدينة. صحيح أن نسيج المدينة مملوكي عثماني، ولكنه أيضاً مع إسقاطاته معاصر حديث يعود ربما إلى الفترة الناصرية.

وأفضل راصد لمدينة بيروت في أثناء الحرب الأهلية اللبنانية قد يكون إلياس خوري، فقد رسم جدارية فسيحة لهذه المدينة التي «تحولت إلى برج بابل. رأى الناس يتكلمون جميع اللغات» (**رحلة غاندي الصغير**). وتطلّ علينا بيروت بوجوه متعددة. ففي «**رحلة غاندي الصغير**» تظهر المدينة كأنها مومس فاضلة، من خلال بطلتها «أليس» المومس المتقاعدة التي شاخت وتحولت إلى خادمة في فندق صغير. ومع أليس نكتشف عالم الليل البيروتي، ومدينة الملذات والحكايات. أما في روايته «**أبواب المدينة**»، فتظهر المدينة، وقد تكون بيروت، قبيل الاجتياح

الإسرائيلي عام 1982، وكأنها مليئة بالذكريات الفردية والجمعية. ويتعامل إلياس خوري مع بيروت كجسد حيّ تمزّقه الحرب، فتتمزّق معها الحكاية وذات الكاتب وذات الشخوص ولغة السرد والقص معاً. فالحكاية المبعثرة هي بيروت التي تناثرت أحجارها، ولكن صورتها بقيت عالقة في أعماق الذاكرة. وفي روايات إلياس خوري لا تنحسر صورة الكاتب وتختفي في الكواليس، بل تظهر مراراً على خشبة المسرح وتتدخل من دون إذن مسبق وتسهم في تناسل الحكايات على منوال «**ألف ليلة وليلة**» والقص الشعبي. وتُكشف الأسرار واحداً بعد الآخر. فبيروت المدينة تصبح معه بيروت الحكاية. وبيروت الجغرافية تصبح امرأة هذا الزمان. وبعامة لم يرسم الروائيون العرب صورة للمدينة الفاضلة التي حلم بها أفلاطون أو الفارابي أو توماس مور. المدينة التي رسموها إشكالية تبعث على الاغتراب والانشطار، وتعبّر خير تعبير عن الزمن العربي المنكسر والمتشظي والمأزوم.

ما مآل مدينة دمشق التي تعيش ثورة طاحنة منذ عام 2011؟ مدينة دمشق التي ما زلت أعيش فيها بعد اندلاع الثورة والتي هجرها قسم كبير من سكانها، ولا سيما الشباب والمتخصصون، هي المدينة التي لم أولد فيها، والتي بدأت أعرفها منذ الخمسينيات من القرن العشرين، وما زلت أعيش فيها منذ أواسط الستينيات حتى الآن. وخلال نصف القرن الذي عاصرتها فيه وعاصرتني، تغيّرتْ عليّ هذه المدينة التي كنت أعشق حاراتها وأسوارها وأوابدها ومشربياتها وروائحها، فصارت في الآونة الأخيرة غريبة عني، كأنها لا تعرفني ولا أعرفها.

في الخمسينيات والستينيات، كانت دمشق مدينة وادعة تعيش حياتها اليومية بهدوء وتأنٍّ. وكانت استمراراً لتاريخها الذي يرقى إلى عشرة آلاف سنة، كما يقول المؤرخون وعلماء الآثار. كانت مدينة محافظة من دون تشنّج، مدينة متعددة الطوائف والإثنيات والثقافات، لم يكن عدد سكانها يتجاوز نصف مليون نسمة في منتصف الستينيات. وكان بردى بفروعه السبعة يسري زاخراً ومنعشاً في جسمها ويفيض مرة أو مرتين في السنة. ولوفرة مياهها كانت تُشطف يومياً، وكانت الأشجار الظليلة تزيّن شوارعها، كما كانت الأشجار المنزلية والأزهار تضفي سحرها على البيوت العربية ذات الطراز التالد. أما الناس فكانوا بسطاء وطبيعيين يحبون التندّر والمزاح والتنكيت بلهجتهم الشامية الممطوطة. تمضي حياتهم وادعة راضية مَرْضيّة، ويتعايش فيها الإنسان والحيوان ويسرحان بين سياراتها وحافلاتها القليلة. أتذكر الروائح الأريجية التي كنت أستنشقها في الحارات القديمة. وبالنسبة إلى النظافة، كان علماء الاجتماع يصنّفون أنظف المدن في العالم كالتالي: جنيف، موسكو، دمشق.

ولكن التحولات السياسية التي طرأت على المدينة إبان الستينيات قلبت حياة دمشق رأساً على عقب. أثقلت الهجرة الريفية الكثيفة ديموغرافيا المدينة، ما فاقم ظهور العشوائيات وأحزمة البؤس التي زنّرت المدينة وكادت تخنقها. لم نكن في الماضي نرى كثيراً من العسكر بثيابهم المموهة وبنادقهم ومسدساتهم الظاهرة يتجولون في المدينة. قفز عدد سكانها من نصف مليون إلى مليونين في منتصف السبعينيات، وإلى خمسة ملايين الآن وربما أكثر.

المدينة المكتظة التي قتلت نهرها هي دمشق. صارت مثل برج بابل. وبعد 2011 تغيَّر وجه المدينة كثيراً. صارت مدينة ملأى بالحواجز العسكرية والكتل الإسمنتية التي تسدّ أو تضيِّق الشوارع. أصبحت الشعارات السياسية الصاخبة في كل مكان، لا بل احتلت أسوارَ المدينة وأبوابَها بلافتاتها وصورها. وتحولت مدينةُ الكباد والنارنج والياسمين إلى ثكنة عسكرية. وفقد الناس ابتساماتهم وتنكيتاتهم في انتظار المجهول.

أشعر الآن – وأنا أعيش في دمشق - بغربة عاتية. هل أنتقل إلى مدينة أخرى أكثر حناناً؟ على الرغم من مأساتي مع المدينة التي تبنّتني، وعشقتني وعشقتها، لا أستطيع أن أبارحها. دخلتْ مسامي وذرات دمي. فكيف لي أن أهجرها؟ لعل المقبل من الأيام يعيدها إليَّ بثوبها القشيب الذي كانت تلبسه لي منذ نصف قرن. لعلَّ وعسى!

عن المدن والمنفى (رسالة إلى عبد الله)

جمانة الياسري

صديقي عبد الله،

عندما حدثتني عن موضوع ملتقى «البحث عن مدننا في مدن ومنافٍ جديدة»، كنا في مدينة أدنبره في اسكتلندا، وتحديداً في مطعم أحد الفضاءات التي استضافت مهرجانها المسرحي السنوي. عندها، أذكر أنني أبديت اهتماماً سريعاً بالموضوع، وقلت لك: «سأكتب لك رسالة كإحدى التي كتبتها إيتيل عدنان إلى فواز طرابلسي عندما طلب منها أن تكتب نصاً عن النسوية. عوضاً عن البحث المطلوب، كتبت إيتيل عدنان رسائل إلى فواز طرابلسي من المدن التي زارتها، وعن النساء في تلك المدن. نُشرت هذه الرسائل لاحقاً تحت عنوان «عن النساء والمدن (رسائل إلى فواز)»، في كتاب صدر باللغة الإنكليزية، علماً بأن إيتيل كانت قد كتبت إلى فواز طرابلسي بالفرنسية وترجمت الرسائل بنفسها إلى الإنكليزية». أذكر أنك ضحكت، وأنا ضحكت معك، إلا أني لم أكن أمازحك على الإطلاق. بين عامي 1990 و1992، كتبت إيتيل عدنان تسع رسائل لفواز طرابلسي من ثماني مدن مختلفة: برشلونة، إيكس-آن-بروفانس، سكوبيلوس، مورسيا، أمستردام، برلين، روما، وبيروت (مرّتان). ولو أتى طلبك في مطلع عام 2017،

لكتبت لك أنا أيضاً تسع رسائل من: باريس، نيويورك، وايومنغ، برلين، بيروت، يوتاه، إدنبره، ودمشق (مرتان). ولوثَّقت في هذه الرسائل عودتي إلى دمشق بعد ست سنوات من الغياب، كما وثَّقت إيتيل في رسائلها إلى فواز عودتها إلى بيروت بعد غياب دام قرابة خمسة عشر عاماً.

لعلك تسأل نفسك لمَ أحدِّثك عن إيتيل عدنان ورسائل كتبتها منذ أكثر من عشرين عاماً إلى فواز طرابلسي؟ الحقيقة يا صديقي، لا يمكنني أن أحكي عن المدن والمنفى والتنقل والترحال من دون الحديث عن لقائي بإيتيل عدنان في باريس حيث تعيش كلتانا اليوم. يُشكِّل هذا اللقاء الذي حدث بمحض المصادفة نقطة مفصلية في حياتي كإنسان في هذا العالم، وفي قراءتي لمعنى التاريخ والجغرافيا في حياتنا ككائنات بشرية تؤثر وتتأثر بالمكان والطبيعة والمناخ والضوء والسياسة والحرب والفن والمجتمع. وكما كتبت إيتيل لفواز بالفرنسية، وهي اللغة الأقرب للغة الأم لدى إيتيل عدنان، كنت أتمنى لو كان في إمكاني أن أكتب لك رسالتي هذه بالفصحى والعامية السورية، تتخللها مقاطع بالفرنسية والإنكليزية. فهكذا هي لغتي، تارة صحيحة وتارة متعرِّجة، كما هي شوارع وأروقة كل المدن التي خطتها قدماي في السنوات السبع الماضية والتي سبقتها. إلاَّ أن تعرُّج اللغة أو فقدانها ليس وحده ما يجمعني بإيتيل عدنان التي تكبرني بأكثر من نصف قرن، ولا حتى السفر وكثرة الترحال والعيش في باريس. ما يجمعني بإيتيل هو الولادة في المنفى والاستمرار في التنقُّل إلى أن يصبح المنفى هو شكل الحياة الوحيد الممكن والمُحتمَل على خلفية سلسلة حروب وهزائم وشتى أنواع الاستعمار التي لا أمل من

انتهائها، وإلى أن تصبح جميع المدن والأمكنة التي تزورها استعارة عن المدينة التي ولدتْ فيها والتي لم تكن يوماً ملكك أصلاً.

عادت إيتيل عدنان إلى بيروت عام 1991 بعد أن اضطرت إلى مغادرتها عام 1977، أي بعد مضي عامين على اندلاع الحرب الأهلية في لبنان وتعرُّضها إلى التهديد من قبل الكتائب اللبنانية على إثر صدور روياتها «سِت ماري روز»، التي باتت اليوم من كلاسيات أدب الحرب الأهلية. إلاَّ أنها لم تكن المرة الأولى التي يطول فيها غياب إيتيل عدنان عن المدينة التي وُلدَت فيها عام 1925 من أبٍ سوري دمشقي وأمٍّ يونانية من سميرنا (اليوم، إزمير في تركيا). في مطلع خمسينيات القرن العشرين، حصلت إيتيل عدنان على منحة لإتمام دراستها في الأدب والفلسفة في باريس، قبل أن تحملها مجموعة من المصادفات إلى الولايات المتحدة عام 1955. في أمريكا، وقعت إيتيل في حب اللغة الإنكليزية والثقافة الأمريكية، فقررت أن تجعل من منطقة ساوسوليتو في ولاية كاليفورنيا موطنها الثاني، وهناك أصبحت رسامة وشاعرة أمريكية ملتزمة النضال ضد حرب فيتنام وحركات الحقوق المدنية. إلاَّ أن التخبطات المستمرة في المنطقة العربية، وبالتحديد هزيمة حرب حزيران 1967 وما تلاها من أحداث غيَّرت المنطقة سياسياً واجتماعياً وثقافياً، راحت تشدُّها تدريجياً نحو العالم العربي، إلى أن قررت العودة للعيش في لبنان عام 1972. عند عودتها إلى بيروت، عملت إيتيل عدنان بشكل خاص في الصحافة، وهي الفترة التي استلمت فيها إدارة الصفحات الثقافية في جريدة «الصفا» التي كانت تصدر باللغة الفرنسية، حيث اشتهرت

افتتاحيتها في الصفحة التاسعة من الجريدة التي كانت تكتب فيها عن الحياة الثقافية والقضايا السياسية المحلية والعالمية. إلاّ أن عودة إيتيل عدنان إلى بيروت في ذلك الحين رافقها شعور عميق بالكارثة الآتية والتي كانت قد تنبأت بها في قصيدة «قطار بيروت نحو الجحيم» (1970)، التي كتبتها من كاليفورنيا وهي تفكر في بيروت وعمان والقدس وغيرها من المدن التي كانت تصلها أخبارها المُقلِقة من بعيد. هكذا، في مطلع عام 1975، قبل فترة وجيزة من اندلاع الحرب، راحت إيتيل عدنان تكتب مجموعة من القصائد التي ستشكل كتاب «سفر القيامة العربي» الذي فرغت من كتابته عام 1976، إلاّ أنه لم يُنشر حتى عام 1980. «سفر القيامة العربي» كتاب رؤيوي مؤلف من ٥٩ قصيدة مكتوبة باللغة الفرنسية، تتخللها رسوم ورموز تحمل ما تعجز اللغة عن قوله أمام هول الكارثة. ٥٩ قصيدة بعدد أيام حصار مخيم تل الزعتر (حزيران-آب 1976)، وإن لم تكن تعرف عندما بدأت بكتابة هذه القصائد أنها ستتحوَّل إلى وقائع بداية الحرب الأهلية في لبنان وإحدى مجازرها الأكثر عُنفاً. كما لم تكن إيتيل تنوي مغادرة بيروت من جديد في ذلك الحين، ولكن بعد كتابة رواية «ست ماري روز»، لم يعد في إمكانها البقاء في لبنان. وهكذا، عادت إيتيل عدنان إلى كاليفورنيا عام 1977، وهي السنة التي أنا وُلدتُ فيها في دمشق. انتظرت إيتيل قرابة خمسة عشر عاماً حتى زارت لبنان مجدداً، وكررت الزيارة عام 1992 وكأنها أرادت التأكد مما اختبرته في زيارتها الأولى (لاحظ هنا أنني استخدمت كلمة «زيارة» وليس «عودة»).

أما أنا، فقد بدأت بمغادرة دمشق عام 2010، أي قبل أشهر من اندلاع الثورة وتحولها إلى حرب - لن ندخل هنا في تفاصيل وأسباب هذا القرار. في عام 2011، وهي السنة التي التقيت فيها بإيتيل عدنان للمرة الأولى، زرت دمشق مرتين وفي كل مرة كنت متأكدة من كوني سأبقى. إلاً أني أدركت في زيارتي الثانية في شهر أيلول من العام نفسه، أن البقاء في دمشق ضمن الظرف التاريخي الراهن ليس خياراً ممكناً ولا واقعياً، وإن احتفظت بتذكرة العودة التي كنت قد حجزتها وقتها على الخطوط الجوية السورية (ومازلت محتفظة بها حتى الآن كما أحتفظ بغيرها من «التمائم» خوفاً من نسيان التسلسل الزمني الذي قادني إلى حياتي كما هي اليوم). وهكذا، من أول تشرين الأول 2011 لغاية شهر آذار 2017، أمضيت قرابة ست سنوات هي من المؤكد أقسى ما عشته في حياتي، ليس فقط لأن في سوريا اليوم حرب طاحنة، بل لأن العيش خارج دمشق هو كارثتي الشخصية التي لا تغادرني ولا لحظة واحدة من كل جزء من الثانية مهما رأيت من بلاد الله الواسعة. عدت أخيراً إلى دمشق في 23 آذار 2017، ولم يمضِ على زيارتي شهر واحد حتى عدت إليها من جديد، إذ لم يكن في إمكاني انتظار عامل كامل للتأكُد مما رأيته وشعرت به هناك.

والحقيقة أن الموضوع يتجاوز ما يحدث في سوريا منذ عام 2011، فحكايتي مع هذه المدينة لا تخلو من التعقيد أو حتى من شيء من الدراماتيكية، فاسمح لي أن أعود هنا إلى أصل هذه الحكاية وتقاطعاتها مع حكاية إيتيل عدنان أو كما يطيب لي أن أتخيل هذه التقاطعات.

ولدت إيتيل عدنان في منفى أمها اليونانية وأبيها السوري الذي كان ضابطاً في الجيش العثماني وأحد زملاء مصطفى كمال أتاتورك في الدراسة. التقى عساف قدري بِك بوالدتها روز ليلي في سميرنا، حيث حصل على العلاج على إثر إصابة تعرَّض لها خلال حملة الدردنيل (1915). بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية، كانت بيروت التي أُطلق عليها لقب «باريس الصغيرة» في تلك الفترة، المكان الأنسب ليعيش فيه الضابط العثماني السابق مع زوجته اليونانية. نشأت إيتيل عدنان تحت الانتداب الفرنسي على لبنان، وحصلت على تعليمها في إحدى مدارس الراهبات الفرنسيات حيث كان يُمنع على الطلاب منعاً باتاً التحدث باللغة العربية. أما في البيت، فكانت اللغة التركية هي التي تجمع بين أمها وأبيها، وهكذا كبرت إيتيل عدنان في عالم يتحدث الفرنسية والتركية واليونانية بشكل أساس، وباتت اللغة العربية شيئاً مألوفاً وغريباً في الوقت نفسه. غادرت بيروت أول مرة في مطلع الخمسينيات (والمغادرة أتت هنا على مرحلتين: المغادرة من بيروت إلى باريس عام 1950، ومن ثم المغادرة من باريس إلى كاليفورنيا عام 1955)، ليعيدها الشوق والفضول إلى بيروت في مطلع السبعينيات، قبل أن تجبرها الحرب على المغادرة من جديد. أمضت إيتيل عدنان أكثر من نصف عمرها في كاليفورنيا، ومع تقدمها في السن وعدم قدرتها على ركوب الطائرة، قررت العودة للعيش في باريس كنقطة لقاء في وسط أوروبا تستطيع الوصول منها بالقطار إلى غيرها من المدن الأوروبية، فمنذ قرابة عشر سنوات لم ولن تعود إيتيل عدنان إلى كاليفورنيا ولا إلى بيروت.

كما تعرف يا صديقي، أنا وُلدتُ في دمشق من أب عراقي
وأم سورية فلسطينية. لي جذور مؤكَّدة في النجف ويافا
ودمشق وحلب، وأخرى يُحكى عنها تمتد إلى السعودية
ومصر والمغرب، حتى أن الأسطورة تقول إن لي جدة لأبي
من أصل هندي، وكم أحب تصديق هذه الأسطورة. ولدتُ إذاً
في دمشق، ولم أبلغ من العمر ثلاثة أشهر حتى انتقل والداي
إلى العيش في الكويت، حيث أمضيت طفولة قد يحسدني
عليها معظم أولاد جيلي. في الكويت، أمضيت السنوات
الثمانية الأولى من حياتي بين كواليس برنامج «افتح يا
سمسم»، كما كنت أول طفلة شاهدت النسخ العربية من
مسلسلات كرتون ساهمت في تشكيل مخيلة جيل كامل،
مثل «قصص عالمية» و«الفتى ياقوت» و«ليدي أوسكار»،
الذي شاهدته في نسخته اليابانية قبل بدء دبلجته إلى
العربية. عشت في الكويت طفولة كلها سحر وخيال، ما جعل
من عودتي إلى دمشق عام 1985 كارثة حقيقية، ليس فقط
بسبب انفصال والديّ، وإنما لانسلاخي عن عالم السحر هذا.
وكم كرهت دمشق! كرهت شوارعها وبرنامج الطلائع على
القناة الأولى ومدرستي الجديدة وكل شبر فيها. تخيّل معي
أن تكبر في مدينة مثل الكويت في عصرها الذهبي، محاطاً
بمن هم بالنسبة إليك أشبه بالسَحرَة الذين يساهمون في نقل
وصناعة قصص وحكايات ستحملها معك مدى الحياة،
للعيش في سوريا الثمانينيات! كان متنفسي الوحيد هي
العطل المدرسية التي أعود فيها إلى الكويت، واستمرت هذه
الزيارات إلى أن وقعت كارثة ثانية في حياتي وحياة الآلاف
غيري - ولكن كما تعرف أنا غالباً ما آخذ الأمور بشكل
شخصي أكثر من غيري - وهي اجتياح الكويت من قبل

القوات العراقية في صيف عام 1990. كنت وقتها في الثالثة عشرة من عمري، وأذكر كيف أدركت للمرة الأولى معنى الحرب وتأثيرها في مصائر الناس. أدركت كوني لن أستطيع العودة إلى الكويت بعد الآن بسبب حملي للجنسية العراقية، وبالفعل لم أعد حتى الآن، وترافق هذا الإدراك مع مهمة لا مفر منها: أن أحب دمشق وأن أبني علاقة حقيقية معها. كم كانت مهمة صعبة! تطلبت مني جهداً جاهداً يطول شرحه هنا. فقدان الكويت كمدينة كان عنيفاً ومؤلماً، والوقوع في حب دمشق الذي بدأ كتعويض عن فقدان المدينة الأولى كان صعباً وبطيئاً، خاصة وأني لم أكن أعيش فعلياً في دمشق في ذلك الحين، وإنما في فقاعة غريبة في وسط المدينة، هي المدرسة الفرنسية في دمشق. وإن لم يكن الأساتذة في مدرستي بصرامة الراهبات اللواتي أشرفن على تعليم إيتيل عدنان، إلاّ أن اللغة العربية كانت هنا أيضاً لغة أجنبية غير مستحبة.

تعثّر لقائي الحقيقي بدمشق حتى أتممت دراستي الثانوية وانتقلت إلى الدراسة في المعهد العالي للفنون المسرحية. عندها فقط، بدأت أتلمس ماهية دمشق وسوريا، وإن بقي هذا اللقاء قلقاً إلى أن فرغت من الدراسة وانتقلت إلى الحياة العملية. استغرق الأمر قرابة عشر سنوات لكي أكتشف دمشق بمختلف أبعادها، وعشر سنوات أخرى لأعشقها عشقاً يصعب عليّ وصفه. إلاّ أن عشقي لدمشق لم ينفِ إدراكي التام لمشكلاتها، أو على الأقل لمعظم هذه المشكلات التي تمسني شخصياً والتي قادتني لاتخاذ قرار الرحيل عام 2010، وإن لم يكن قراراً بالهجرة في ذلك الحين وإنما استجابة لضرورة أخذ فترة نقاهة من هذه

العلاقة التي راح يختلط فيها الحب بشيء من الكراهية، وهذا غالباً ما يحدث في معظم العلاقات العاطفية مع مرور الوقت. ثم أتى عام 2011 ليذكرني على صعيد شخصي جداً بعام 1990، كما أتى عام 1975 بالنسبة إلى إيتيل عدنان ليذكرها بحروب مضت، وتغيَّر كل شيء. ابتداءً من هذه اللحظة، لم يقتصر تفكيري على فقدان الكويت كمدينة بسبب الحرب، وإنما رحت أفكر أيضاً في المدن التي فقدها والداي وأجدادهم من قبلهم بسبب حروب وكوارث أخرى. رحت أتخيَّل المسار التاريخي والجغرافي المحتمل الذي قاد حركة أبي من بلدة صغيرة في جنوب العراق، إلى فيينا ومن ثم برلين، قبل أن يأتي للعيش في دمشق، وهي المدينة التي عبر منها باتجاه اللاذقية حيث ركب السفينة التي قادته إلى أوروبا في مطلع خمسينيات القرن الماضي، وكيف غادر دمشق للعيش في الكويت قبل أن تعيده الحرب للعيش في بغداد، إلى أن أخرجه منها من جديد الاجتياح الأمريكي للعراق. وإن كان في إمكاني قراءة هذه الرحلة إلى حد ما بناءً على ما أحصل عليه من أجوبة من أبي، إلاً أن رحلة جدي لأمي من يافا إلى دمشق في ثلاثينيات القرن الماضي تبقى غامضة بالنسبة إليَّ. لم يكن جدي لاجئاً فلسطينياً، كان جدي تاجر نسيج يتنقَّل بين يافا وحيفا والقدس وبيروت وحلب ودمشق، حيث تزوج جدتي لأمي وعاش إلى أن أطاح به المرض في عمر مبكر. وفي ظل تفكيري في التحركات التاريخية والجغرافية لأفراد عائلتي وأجدادي، والتي قادتني بالتالي إلى أن أكتب إليك اليوم من باريس، كان وما زال الشيء الوحيد الثابت، على الأقل في مخيتلي وبالتالي هويتي، هو دمشق.

دمشق تعني مكان لقاء أمي بأبي، تعني مكان ولادتي، تعني جدتي لأمي وبيتها في حي «عين الكرش»، تعني رائحتها المُعششة في هذا البيت على الرغم من مرور أكثر من عشرين عاماً على وفاتها، تعني المتحف الوطني الذي أخذتني لزيارته لتريني بعض مقتنياته التي ساهم والدها في التنقيب عنها عندما كان يعمل مع بعثات الآثار الفرنسية في زمن الانتداب على سوريا. لن أقول لك دمشق تعني مدرستي، وأصدقاء عمري، والمكان الذي وقعت فيه في الحب للمرة الأولى. أحدثك هنا فقط عما يعطي لعلاقتي بدمشق، من وجهة نظر ذاتية بحتة، طابعاً تاريخياً يفوق تفاصيل الحياة اليومية. باختصار، دمشق تعني جدتي بشيرة حنيف الحلبي، التي لم تكن فقط امرأة جميلة وحادة الذكاء، بل كانت أيضاً امرأة شجاعة وسبّاقة لعصرها. أذكر لك اسمها لأن الأسماء مهمة، أو على الأقل ذكر وتذكُّر أسماء الأشخاص الذين ساهموا في تشكيلنا مهم. والآن وأنا أكتب لك، أدرك أنني عندما التقيت بإيتيل عدنان، ولم أكن قد قرأت أياً من أعمالها بعد، رأيت فيها شيئاً من جدتي التي لم تكن كاتبة ولا رسامة ولا شاعرة، إذ عملت بشيرة في تصميم وخياطة الألبسة النسائية بعد وفاة زوجها، متحملة وحدها مسؤولية أولادها الستة. ما يجمع بين إيتيل وبشيرة ليس فقط انتمائهما إلى الجيل نفسه، بل كونهما تنتميان إلى سوريا التاريخية التي تتعدد عواصمها بين دمشق وبيروت والقدس ويافا وحيفا وبغداد، وكونهما لم تتطابقا يوماً مع صورة المرأة التقليدية في المجتمع الذي نشأتا فيه (كأني بدأت أحدثك عن النساء أيضاً؟). عالم بشيرة وإيتيل كبير وقديم، احتمالاته واسعة ومثيرة، حدوده غير ملموسة، حروبه أزلية،

وعواصمه متعددة وأسطورية. وإن انقرض هذا العالم اليوم، إلّا أنه يبقى بوصلتي والركيزة التي أستند عليها لأتذكر دوماً من أنا ومن أين أتيت، وإن كنت في بلدة صغيرة في الغرب الأمريكي البعيد.

قد تسأل نفسك هنا أيضاً لما ثراني أحدثك عن هذا العالم المنصرم؟ الحقيقة يا صديقي، مع إدراكي لانتهاء عالمي كما عشته وعرفته لأكثر من ثلاثة عقود، وجدت ملاذاً في محاولة فهم معنى المدينة والمنفى والقلق المزمن الذي يسببه الفقدان المتكرر للأمكنة إثر شتى أنواع الكوارث التاريخية والذاتية، من الحرب إلى انفصال رجل وامرأة، وكتابات إيتيل عدنان كانت وما زالت منارتي في رحلة البحث هذه. عبد الله، لاشيء يحدث بمحض المصادفة، ومصائرنا جميعاً مرتبطة بعضها ببعض وبمصائر من سبقنا. نرث كوارث أجدادنا وآبائنا ونتحمّل عبئها، في الوقت نفسه الذي يتحتم علينا فيه التعايش مع الكوارث التي نعيشها أو نشهدها. والمدينة أو المدن أو بلدة صغيرة في جنوب العراق، هي الشاهد الأساس على هذه الكوارث، على أسبابها ونتائجها والعلاقات التي تربط بينها وتولّدها. نحن لا نعيش فقط في المكان، وإنما نعيش المكان والمكان يعيش فينا. ما الذي يحدث إذاً عندما يصبح المكان مستحيلاً وخارجاً عن السيطرة؟

ولدث في منفى أمي وأبي، وأمي ولدت في منفى أبيها، ولو لم تكن بلداننا في حروب مستمرة منذ الأزل، لكان اليوم لدي بيت في دمشق ويافا وبغداد، لي مطلق الحرية أن أختار بينها. ولو كانت الأم تمنح الجنسية في هذه البلدان، لحملت

أمي جنسية والدتها السورية ولأعطتني إياها، وبالتالي لما كانت سوريتي مطعوناً بها منذ أتيت إلى العالم. ولكم كان يؤلمني اضطراري إلى طلب الإقامة في سوريا وتجديدها سنوياً كما «الأجانب»! حتى أنه كان ينبغي لي التوقيع على تعهُّد بـ«عدم مزاولة العمل في الجمهورية العربية السورية تحت طائلة العقوبات القانونية». موعدي السنوي في مركز الهجرة والجوازات في حي البرامكة، من أكثر اللحظات المهينة التي عشتها في حياتي، وهذا من الأسباب الأساسية التي قادتني إلى أخذ قرار المجيء إلى باريس، وهي المرة الأولى في حياتي التي اخترت فيها بنفسي مكان إقامتي. ولكن ما إن تحوَّل العيش في باريس إلى حتمية بسبب فقدان دمشق بعد الحرب، حتى كرهت هذه المدينة التي سعيت مطولاً إلى العيش فيها. كرهت باريس كما كرهت دمشق سابقاً، قاومتها ونكرتها وعزلت نفسي بالمطلق عنها. وأهم ما عثَّر لقائي بباريس، هو عجزي عن استيعاب ما يحدث في سوريا حقيقة منذ غادرتها. باختصار، أمضيت ست سنوات وأنا أستحضر مدينة لم تعد موجودة، ولعلها لم تكن موجودة يوماً أصلاً. أمضيت أياماً، بل شهوراً وسنوات، أتخيل الحياة الباريسية في الخارج وأعيد ذهنياً تركيب المدينة المفقودة، والخيال يا صديقي شيء خطير. محا تمريني اليومي هذا الحدود المادية والواقعية بين الأمكنة والأشياء، إلى درجة جعلتني أشك في ذاكرتي وأرفض قطعياً خلق علاقة عضوية جديدة مع مدينة أخرى غير التي تسكن مخيلتي. هكذا إلى أن قادني العمل إلى السفر بشكل متواصل بدءاً من عام 2015، ومع كثرة السفر والتجوال بين المدن العربية والأوروبية والأمريكية، حدث شيء

مفاجئ: صرت أشتاق إلى باريس كلما غادرتها وأتوق إلى العودة إليها. ومع هذا التحوُّل المفاجئ، رحت أشعر بالذنب: أتراني أخون دمشق وذكرياتي معها؟ استمر صراع الهنا والهناك إلى أن وصلني في صباح أحد الأيام بريد رسمي يدعوني إلى المقابلة الإلزامية ضمن إجراءات الحصول على الجنسية الفرنسية. ما أن قرأت هذا البريد، ومن دون الكثير من التفكير، قطعت تذكرة إلى بيروت واتصلت بأمي لأُبلغها أني سآتي بعد أيام إلى دمشق.

لن أستفيض هنا في الحديث عن العودة، لأن هذا بحد ذاته موضوع طويل ومعقد. إلاّ أن أهم ما حدث خلال زيارتي إلى دمشق هو إعادة العلاقة مع المكان بشرطه الجديد، وإن كان شرطاً مفجعاً تنشأ عنه الكثير من المشاعر المختلطة تتراوح بين فرحة العودة إلى البيت إلى الاحتكاك بوحدة وحزن من بقيوا، ناهيك عن الاحتكاك بعوالم الحرب والقمع، ومراقبة حالة الانفصام التام بين هذه الكارثة وحياة من ينكرون الكارثة أو من وجدوا طريقة ما للتعاش معها. بعد زيارتي الأولى إلى دمشق في آذار-نيسان 2017، عدت إلى باريس لتصيبني حالات هلع راحت تباغتني ما أن نزلت إلى الشارع أو وأنا أتفرج على الصور التي التقطتها خلال زيارتي، إلى أن بدت لي العودة النهائية إلى دمشق كالحل الوحيد الممكن لتجاوز هذا الهلع. وهكذا، عدت إلى دمشق بعد شهر واحد من زيارتي الأولى، وكم أنا سعيدة أني فعلت. خلال هذه الزيارة الثانية، أمضيت 24 يوماً في دمشق كان معظمها في البيت. حاولت أن أعيش المدينة وكأني لم أغادرها يوماً، وما أن مضى أسبوعان على زيارتي حتى أدركت أنه لم يبقَ لي ما أفعله هناك، ورحت أنتظر بصبر نافدِ العودة إلى باريس.

ومن دمشق، كتبت لإيتيل عدنان لأخبرها عن زيارتي وأحدثها عما أمر به على صعيد العلاقة مع المكان. قلت لها إني أفكر في كل ما كتبته هي عن العلاقة المركبة والمتخيلة بين المدن التي نعيش فيها في أوروبا وأمريكا، ومدننا المهزومة بشكل مستمر. شكرتها على كتابتها التي تصف وتشرح وتحلل فيها هذا الانزياح الذي يحدث بين المنفى والمدينة التي ولدنا فيها والتي تسكننا، وهو انزياح خاص جداً بما تفعله الحروب، حروبنا نحن على وجه الخصوص. تقول إيتيل عدنان في إحدى اللقاءات التي أجريت معها، إنه لو لم تكن هناك حروب مستمرة في المشرق العربي، لما كانت عربية، فهي الحرب التي تشدها باستمرار إلى هذا العالم القلق. قد أصبح يوماً فرنسية، إلاَّ أن سوريتي وعراقيتي وفلسطينيتي ستبقى حاضرة دوماً، ودمشق، كما بيروت بالنسبة إلى إيتيل، تلخَّص في كل شبر منها هذه العلاقة الحتمية.

خلال زيارتي إلى دمشق، ذهبت إلى بيت جدتي حيث تعيش اثنتان من خالاتي اليوم. تأكدت من أن ماكينة الخياطة السينجر ما زالت موجودة، وفتحت ألبومات الصور القديمة وتصفحتها مطولاً. كما ذهبت إلى المتحف الوطني الذي ما زال من الممكن التجول في حديقته. كنت أرغب في زيارة المقتنيات التي ساهم والد جدتي في التنقيب عنها، إلا أن ذلك لم يعد ممكناً، وهنا فقط أجهشت بالبكاء. عبد الله، نحن اليوم لا نخسر ذكرياتنا القريبة فحسب، وإنما نخسر ذلك الشيء العميق والبعيد الذي جعل منا من نحن. لست ممن يتغنون بالياسمين وأرض الديار ورائحة رمضان في الشام، أنا من هؤلاء الغرباء الذين يبكون الحجر قبل البشر، وإن

كنت عاجزة حتى الآن عن فهم ما الذي يقودني إلى التعلُّق إلى هذا الحد بالجدران والأرصفة وغيرها من الأطلال. لعله الشعور بكونها تحمل بصمات عبور كل من عبروا وأن هذا شيء مهم؟ وأنا أكتب لك الآن، خطر لي أن هذا أيضاً من الأشياء التي تشدني إلى باريس، وإن كان بطريقة مختلفة تماماً. الفرق الأساس بين دمشق وباريس، من هذا المنطلق، هو أن جدران دمشق تسكن فيها أرواح تقربني بطريقة ما، حتى أنها قد تكون جزءاً من جيناتي، بينما جدران باريس تعشش فيها أشباح فنانين وأدباء ومفكرين أنا في حاجة إليهم اليوم لكي أفهم علاقتي مع ذلك المكان الآخر. وإن أردت أن أذهب أبعد بهذه الفكرة، قد تكون دمشق هي كنايتي الشخصية عن الماضي والزمن ببعده الأسطوري البعيد، وباريس، بماضيها، هي المكان الذي قد أعيش فيه المستقبل في أثناء حدوثه. فكرة معقدة، أليس كذلك؟

كتبت إيتيل عدنان لفواز طرابلسي في مطلع الرسالة الأولى التي وجهتها له: «أردت أن أكتب لك من برشلونة رسالة عن النسوية، للعدد الخاص عن «النساء العربيات» الذي ستصدره مجلتك زوايا. ولكن كيف لي أن أجمع بين مشروعين: مشروع اكتشاف المدينة (البلد)، ومشروع التفكير في موضوع شاسع إلى هذا الحد؟ انتصرت برشلونة. لا أعرف لماذا، ولكن لطالما أجَّلت رحلتي إلى إسبانيا - ربما خوفاً من البقاء فيها؟ أجول في شوارع هذه المدينة وأنا أكتب لك «ذهنياً» هذه الرسالة، وخطاب آخر يدور في خاطري. أقول لنفسي إني، لربما، سأجد هنا الأجوبة عن أسئلتك. (...) إلاَّ أن برشلونة غمرت كل شيء». وأنا، في إمكاني أن أستعير هذا المقطع لأقول لك: «أردت أن أكتب لك من باريس رسالة عن

«المدن والمنفى»، للمتلقى الذي تنظمه اتجاهات. ولكن كيف لي أن أجمع بين مشروعين: مشروع اكتشاف المدينة (البلد)، ومشروع التفكير في موضوع شاسع إلى هذا الحد؟ انتصرت باريس. لا أعرف لماذا، ولكن لطالما أجلت لقائي بباريس - ربما خوفاً من البقاء فيها؟ أجول في شوارع هذه المدينة وأنا أكتب لك «ذهنياً» هذه الرسالة، وخطاب آخر يدور في خاطري. أقول لنفسي إني، لربما، سأجد هنا الأجوبة عن أسئلتك. (...) إلاّ أن باريس غمرت كل شيء».

في مطلع هذه الرسالة، ظننت إني سأحدثك عن مختلف المدن التي أتنقل بينها، ولكني أدركت في أثناء الصياغة أن السؤال الأساس فيما يخصني هو العلاقة الجدلية التي أعيشها اليوم بين المدينة المفقودة والمدينة المشتهاة. أما فيما يخص المنفى، أذكر أني قرأت أو سمعت في مكان ما أن المنفى لا يمكن أن يكون إلا شيئاً حزيناً. قد ينسى أو يتناسى المرء هذا الحزن في زحمة المدينة الجديدة، خاصة إن كانت مدينة لطالما أراد أن يعيش فيها وأن يمتلكها، إلّا أن هذا الحزن قد يزورك من حين لآخر ليذكرك بأنك وإن ملكت المكان فقد فقدت ذلك المكان الآخر الذي سيبقى دوماً معششاً في داخلك. ولكن المدن بالنسبة إليّ هي أيضاً عبد الله وحنان وريم وحسان في بيروت، لواء وسلافة في برلين، ألما في مونتريال، عمرو في بوردو، وائل في ليون، وغيرهم الكثير من أصدقائنا الذين باتت مدنهم الجديدة هي مدني أنا أيضاً، إن كنت قد زرتهم فيها أو فقط تخيلتها عبر ما يحكونه لي عنها. جغرافيا المدينة التي أعيش فيها في داخلي اليوم مبعثرة بين القارات، بين فضاءات متعددة منها بيت أمي في مشروع دمر، شرفة لواء في شارلوتنبيرغ،

مكتبك في مار مخايل، شقة إيتيل عدنان في دائرة باريس السادسة، ونافذة تطل على نهر الهدسون في نيويورك. مدينتي المتخيلة كبيرة، ممتدة، حدودها العالم، يسكنها أصدقائي القدامى والجدد، والفنانون والمفكرون الذين تلهمني أعمالهم. كل شارع في هذه المدينة المتخيلة مألوف، والمنفى ليس إلا جزءاً من جمالها. لو لم نكن جميعنا منفيين، لما أدركت أصلاً كم هي جميلة هذه المدينة المتخيلة، ولما بذلت جهدي لكسر وتحدي الحدود الجغرافية والمادية التي تفصلني عنكم. أشكر المنفى على أنه وسَّع حدود عالمي، عدَّد لغاتي، عرَّفني على ما لم أكن أعرف، وخلق لدي حالة حنين صارت بمثابة مهماز لحركتي في هذا العالم. أذهب إلى من أشتاق، أتحدث إليهم عبر العالم الافتراضي والأدب والسينما والفن، وأطير فرحاً كلما زارني أحدهم في باريس. أنا من الأشخاص الذين لا يشعرون بالملل والوحدة على الإطلاق، وإن كنت أشعر بالشوق، إلاّ أن هذا الشوق ليس سوى حالة سعي دائمة إلى استحضار من أشتاق إليهم من أحياء وراحلين. وفيما يخص الجدران والأرصفة وغيرها من الأطلال، سأصلّي لكي تبقى صامدة في مكانها لتحفظ ذكرانا وذكرى من أتوا قبلنا ومن سيأتون بعدنا. يقولون لي إن دمشق ليست سوريا، ولكن أليست العواصم في النهاية كناية عن البلدان؟ أليست باريس كناية عن فرنسا، وبرلين عن ألمانيا، وبيروت عن لبنان؟ وإن لم تعكس هذه المدن التنوع الديموغرافي والاجتماعي والسياسي للبلد كله، إلاّ إنها تلخّص بكل تأكيد ثقافة البلد وموضع تواجده في العالم. قد تكون هذه النظرة ذاتية بالمطلق، ومن المؤكد أن ولادتي في المنفى وكثرة التنقل منذ مجيئي إلى هذا العالم هيأتني

للافتتان بالرحيل وعدم القدرة على الثبات، وكأن حياتي ليست إلا محطات في شريط سينمائي أو رواية متسلسلة تدور أحداثها في أنحاء العالم كافة.

عبد الله، سأتوقف الآن عن الكتابة لنكمل الحديث لاحقاً في بيروت أو باريس، في انتظار أن تزورني في بيت أمي في دمشق في يوم من الأيام وأن نحلم معاً بالمزيد من المشاريع.

تحياتي لك ولجميع الأصدقاء في بيروت، لكم أتمنى أن أكون معكم اليوم!

كل الحب ،

جمانة

باريس ، 21/11/2017

سأم بـيـروت

جولان حاجي

- تعويذة اسمها القرداحة -

صمتٌ وجيز، تحت سماء بيروت التي تستضيء أطرافها بحرائق خفية عند انقطاع الكهرباء، أوهمك فيه هديرُ المولّدات وارتجاجُ زجاج الشبابيك بأن شارع الحمرا سيقلع بمقاهي أرصفته وتاريخ مبانيه، بصحافييه ومتذمّريه وجماله وألفته، آخذاً معه العمود الذي ربط إليه رفيق شرف جواده أمام الهورس شو، وكشك الجرائد مقابل كوستا، ولافتات وسترن يونيون الذهبية، ومناقيش زعتر وزيت، والنجوم النحاسية التي كنت تدعسها بخفك الرياضي بعد أن غرزتها سوليدير في حجارة الرصيفين منقطعي النظير في بيروت. واستمرّ الشارع في انزلاقه هبوطاً إلى عُباب المتوسط ليقلع من رأس بيروت كباخرةٍ محمّلة بالنازحين سيشحنها الحكيم سمير فريد جعجع إلى نيويورك، ويعاونه على دفش الباخرة الفينيقية إلى عرض البحر كتيبةُ سائقي سيارات الأجرة في القوات اللبنانية، وأرتالٌ طويلة من شبّان اصطفوا في عرض هذا الشارع نفسه، اصطفافَ الجند في خندق، وفوق رؤوسهم ترفرف رايات الزوبعة الحمراء. كنتَ شاباً أيضاً، نزّ شبابك كجرح في الأحشاء وأنت تمضي يوم نحسك الوحيد الطويل، منهمكاً بمخاوف تكاد لا تعني أحداً بعينه، محرقاً سنواتك الأخيرة التي ذوّبتك في بيروت،

سيان سنة واحدة أو ستّ سنين ما دمت قد تجنّبت على الدوام شروراً شمّتها غرائزك لتعيدك، مرة تلو مرة، إلى خوفٍ لم يبارحك البتة، وأحسست به دائماً في لحم جسدك، يشتدُّ أو يخفت، ولكنه أبداً ما اختفى تمام الاختفاء، فإذا توارى لبثت بقاياه في وجيب قلبك، واختلطت ظلاله بيقظتك ومشيتك وشحوب تعبك ورغباتك.

تعلّمتَ باكراً إن البضاعة الرخيصة طويلة العمر، ولا تنكّد عليك بالحرص، ولا بالحسرة إذا صُودرت في أثناء توقيفك وتفتيش حقيبتك، أو إذا ضاعت ففرح بها غيرك على الرصيف كلُقية أو علامة حظّ. كالمتطيرين، احتميتَ بقداحة صينية سمّيتها القرداحة، مصباحها كالحباحب في مؤخرتها، وقد رأيتَ في المخيمات، أكثر من مرة، طفلاً يضع في فمه مثل هذه القداحة، المسماة فانوس اللوزات، ثم يضغط زرّ المصباح رافعاً في اللحظة نفسها مؤخرته العارية، كأنّ أنبوبه الهضمي نفقٌ والضوء يسافر فيه عبر ظلام أحشائه ليبزغ من فتحة شرجه وينير الخيمة الجرداء، حيث الآباء الحيارى يأكلون الهواء، والأبناء المرضى يأكلون الضوء.

كانت قرداحتك قد فرغت منذ سنين، ولم تقوَ على رميها، مثلما عجزت عن التخلص من أشياء كثيرة لا لزوم لها تكدّست في حوزتك سراً، كقلم حبر تهديه محارم ديمة إلى الزبائن أمثالك، أو بطاقة يانصيب معرض دمشق الدولي جميلة التصميم منتهية الصلاحية، وهذه أشياء أثيرةٌ لديك لأنها بعضُ ماضيك، وأحدها تعويذتك القرداحة التي لا تُعيرها ولا تريها لأحد، غلّفها صينيون ببلاستيك فيروزي اللون وزوّدوها بصورةٍ مقلوبة وأصغر من زر في ثوب دمية،

كنت تتملّاها تعوم في بئر مصغّر من غاز قطر السيّال، وإذا ضغطتَ الزرَّ، جاهلاً أين البطارية وكم ستدوم، ارتسمتْ على حائطك هالةُ من النور تطوّق شبحاً باهتَ الألوان هو سماحة السيد حسن نصر الله، وكنتَ تمرّن نفسك على هاتين الكلمتين «سماحة السيد» لكيلا يزلّ لسانك بنطق اسمه مجرَّداً من أي لقب، أينما كنتَ، ولأي سبب اقتضى المجاهرة به على الملأ، حتى لو كان المقصود بهذه الكنية المركبة «نصر الله» هو عائلة من «الإخوان المسيحيين»، بعض أبنائها متطوّعون في الأمن العام.

الحيطة ليست غريبة عنك بأية حال. لقد رافقتك من دمشق التي غادرتها هارباً، وتعمّقت هنا، ضاربة جذورها تحت جلدك في مأوى بيروت، حيث عشتَ في غرفة مستأجرة تطلّ على شارع الحمرا، وتركتَ زرّ الجرس فارغاً من اسمك، محترساً لكيلا يتعرفَ إليك أحد من الجيران وضيوفهم وكلُّ من يتجاهلونك ويستريبون بك ولا يبادلونك التحية على السلالم والعتبات، ويصفقون الأبواب عند ظهورك فتخفض زفيرك، ولا تملك ردّاً على أي شيء.

وقفتِ الكلمات حاجزاً موجعاً بينك وبين حياتك اليومية في بيروت، تسمع «لا تعمّم»، فترى عمائمَ سوداً على رؤوس فزاعات، وتسمع «يا عدرا»، فتفكّر في أمٍّ تزورُ وحيدَها في سجن عدرا. لفرط ما انزويتَ، متخيّلاً ما يقع على رؤوس أترابك من مصائب، عشتَ كلَّ ما جرى لهم حقاً وانتحلتَ ذكرياتهم وكأنها جزء من ماضيك. مقتصداً في المصاريف على الدوام، ظللت تحتاط من الغشّ والاحتيال. مخاوفك وتقديراتك، والحرص على عدم الظهور مخدوعاً، انتهت بك

إلى نسيان مصائب الآخرين وطيبتهم. حاولت أن تتعلم فنَّ المساومة ولم تطبّقه قط، وكنت تؤنّب نفسك في البداية لأنك لا تطيق الاحتجاج على مَن يخدعك، بل قد ترغب في إفراغ جيوبك كلها على طاولة أي محل من محلات الموبايل أو أي بقالية، والخروج من دون أن تشتري شيئاً. التسوّق البسيط محنةً أحياناً أو مجابهة، حيث ينقبض قلبك مرتقباً السؤال عن المكان الذي أتيتَ منه في سوريا، وأنّى لوحيد مثلك أن يمحو وصمة لهجته التي تدينه وتعيقه، حتى بين السوريين أنفسهم، ومن أين لك بصيت العائلات العريقة والمعارف المتنفّذين والنقود قرون الرجال، وأنت مجرد شابّ آخر، أهانته صفاته وسحقته كما تُسحَق أعقاب السجائر، فلسطيني أو سوري، نكرة على الحدود في العتمة الخانقة عند بوابة المصنع.

كنتَ أحياناً، عند تجاوز المكيّفات لطاقة المولّدات وانقطاع الكهرباء عن ليلك في صيف بيروت، تستخرج قرداحتك من جيبك الخاوي، منشرحاً لأنها لم تنفجر من تلقائها في الحرّ، كشقيقاتها من بضائع الصين، لتحرق عانتك وتُخصيك، وكنتَ، ذات مرة، على وشك أن ترميها لتنفجر بدورها حين سدّد شبان قدَاحاتهم الرخيصة من أسطح البنايات على الأرصفة احتفالاً بدخولهم الدقيقةَ الأولى من السنة الجديدة في عين الرمانة، وكان أحدهم يصيح: «في البدء كان الكلمة؟ في البدء كان الانفجار! نوراً، منيّاً...»، ثم تردّدتَ، جرياً على عادتك في التردّد أمام كل ما تجاري به الآخرين، فنجت التعويذة من تقلبات مزاجك لتضيء رصيف أيامك بنور الهداة المنتظَرين، وتسدّد خطاك بصورةِ حسنِ نصرَه

الله ليربح الموتَ حسنٌ آخرُ، شابٌ فلسطيني في الخامسة والعشرين من عُمره.

كنتَ تنقل الصورة المشرقة، هالة قديس شاحبة شحوب البدر في تمامه، كأنك مهندس إضاءة يكلّل الراقصين على الخشبة ببقعة ضوء، تتضاءل عند اقترابها من أي سطح لتستحيل نقطة قرمزية كبؤبؤ سكران في صورة فوتوغرافية. وإذا اتسعت المسافة بين المنبع والمسقط كبُرت الصورة وتغبشت واضمحلّت، كما شهدتَ تحت مصابيح الكورنيش عند حلول المساء، حين استطعت أن تسقطها على زبد الموج لتتماهى معه، متحاشياً إسقاطها على الزبالة الطافية التي تلامس الصخور، وتنتهي عند حصر تفترشها عوائل سورية مهجّرة يدخّن رجالها الأراكيل أمام البحر. هذه الصورة التي أخافتك أكثر حين وقعت على جرذ قفز من طوق الضوء كحيوان في سيرك وتوارى، ولحظتئذ، أو بالأحرى، طوال ذلك الوقت كله، كنت تخشى مَن يظهر فجأة ليستوقفك ويشبعك ضرباً، من دون داعٍ، أو بسبب ما لا يُحصى من الدواعي، ثم يتمّ ترحيلك وتُمنع من دخول لبنان مدى الحياة، أو تخافُ من يلاحقك في العتمة وأنت تستعجل الصعود إلى غرفتك، مصلياً كي لا ينفتح أي باب ولا يراك أحد من سكان البناية وجهاً لوجه، فتتعثر بعبوات ماء «صنّين» الفارغة المصفوفة في الممرات، وتفزعك الجلبة قبل أن تلاحظ إن مَن لاحقك قد اختفى، وربما سامحك لأنك كفرتَ وأهنتَ سماحة السيد حين مرّرْتَ صورته هكذا بوقاحة الجاهل فوق القمامة التي لا مناص منها، ومرّغت الطهارة بنجس الأحذية وسفور المتنزّهات وكلابهنّ التي تجيد فَهم الفرنسية ولا تتكلّمها، فتفكّر في العجوز الذي

شاهدته يجوب زواريب الحمرا، مفتشاً في نفايات الأوراق عن اسم الله، فيقصّه أينما رآه ويقبّله ثلاثاً كأنه كسرة خبز، ثم يضعه برفق داخل كيس يضم قصاصات أخرى مشابهة، قبل ذهابه لدفن الأسماء الحسنى في بئرٍ بحرش بيروت، مغتبطاً وفخوراً بإنقاذ المقدّسات.

«ادفَعْ تبقَ»، هذه هي القاعدة. كم توجست، عند وصولك إلى عتبة بابك، وأنت تدير مفتاحك الوحيد في أقفال الآخرين، خائفاً من أن ترى أغراضك كلها، على قلّتها، مبعثرة على الأدراج أو مكوّمة وحدها في انتظارك، فتجلس وسطها، وتدخّن سيجارة سيدرز في العتمة، موقناً أن هناك من يتلصص عليك عبر العيون الساحرة للأبواب. وإذ استلقيت انتبهتَ إلى أنك كنت قد نسيت كيف تسترخي، وكما تفعل حين يلفّك الظلام ويجافيك النوم، استغرقتَ في إحصاء الديون الصغيرة والمنن التي أثقلتك، وأنت تسلط ضوء قرداحتك على الفسفس الذي تكنّى باسمه صغارُ المخبرين، بقّ الفراش الذي شمّ زمرة دمك ولاحقك من بيت إلى بيت وتخفّى في ثنايا أمتعتك، الحشرة دائرية الشكل التي كنت تراها تدور على ذراعك مئة وثمانين درجة لتتبرّز كناكرِ الجميل في موضع امتصاصها لدمك.

-الكلبيُّون-

«استضعفوك فأكلوك، هلّا أكلوا شبل الأسد»

المعرّي، على فراش موته، مخاطباً ديكاً مطبوخاً.

أنبأك زيز الصنوبر، ساعة الغروب، إن الغد يوم قائظ آخر.

هذه بلدانٌ أنظفُ ما فيها الصّورُ على الشاشات. صورة ميسّي، آخذاً لقطة سيلفي بهاتف هواوي. صورة بشار الأسد مطبوعة على ورقة سورية من فئة ألفي ليرة. الدعايات فاشيةٌ عقب الحروب، أو في الفواصل التي تتخلّلها، تتضخّم فتسيّج حفر الانفجارات وتحجب الأنقاض وتلفّ المباني المجدورة بالطلقات وتغطّي الأبراج المرشوقة بالشظايا. كنت تخشى أن يقفز هؤلاء الواثقون من أنفسهم، أبطال الدعايات، من الشاشات والملصقات العملاقة لينهالوا عليك بالهراوات كرجال الدرك المشمّرين عن زنودهم، فلا تستطيع القفز من شبكة الدونية، وفي رحابها تنطنط قردة «السيرك السوريّ» وبهلواناته الذين تهاووا. لم تستطع القفز من هذه الشبكة العملاقة لتنقض على محتقريك المشمئزّين منك. خسرتَ كلّ شيء من دون أن تكون قد ملكتَ شيئاً فيما مضى.

مَن روى لك، متهكّماً وربما ملفّقاً، أن سوريين وسوريات، مرهفين ومرهفات، قد ذهبوا إلى بارات بيروت صباح 21 آب 2013 ليكرعوا كؤوساً من الفودكا بالليمون والتيكيلا الذهبية بعد قصف الغوطة الشرقية بالكيماوي، لأنهم لم يحتملوا هول النبأ؟ كنت تتساءل، مختلاً من فرط وحدتك، وصومك رمضان صومُ المفلسين: من أين يأتي روّاد الجميزة ومار مخايل وبدارو بالنقود ليتردّدوا على هذه الخمّارات؟ كيف يتدبّر هؤلاء الشبان رواتبَ كنت تخالها مستمرة ومجزية؟ ماذا يعملون بالضبط، وهم ينفقون هكذا بغير حساب؟

ثمة، وسط كل هؤلاء الشبان، الأشذاء الأذكياء الساخرين، الراجلين، الهائجين، الممتطين دراجاتهم النارية المزمجرة أو

الراكبين سياراتِ سباق تهزّ مسجِّلاتُها الأرضَ تحت قدميك، طِوالُ الألسنة الذين تلجم طلاقتهم الإنكليزية لسانك وبمستطاع أيٍّ منهم تصويبُ ركاكتك بمزحة، مدللي آبائهم، تعهّدتهم الجامعاتُ الباهظة الأقساط والمؤسسات الغامضة التي لن تفهمها أبداً، ثم انتهت بهم إلى لغة لا تكاد تقول شيئاً، إلى هذه الكلبية المدمّرة التي لا تؤمن بشيء ولا يعجبها شيء ويفتك بها الضجر، وأنت المهدَّد صاحب الكراكيب متَّهم بالبلاهة والكسل. تتغير ملامحهم حين تُسأل عن عملك، تضحكك تفاسير المحللين النفسيين والشعريين من قبيل: «أنت مراهق مغرور تضخِّم مشكلاتك الشخصية، وتفسّر تصرفات الآخرين، العادية أو غير الواعية، على أنها إساءةٌ تعمَّدوها ضدك»، أو «إذا بلغتَ قاع الإهانة فاحفرْ لنفسك بئراً للصمت أو احفرْ قبراً». أنت آخر المقبولين في عمل، أيِّ عمل إن استطعت إليه سبيلاً، وأول المطرودين منه، تجنح إلى هذا الشطط في تحقير مجهولين تحسبهم يحتقرونك، مستجدياً السكينةَ في بيروت من جمال ما لم يهْدَمْ من منازلها المهجورة، والخرائب تتشابهُ تشابهَ الناس في السعادة. كنت تواصل عبورك على أرصفة المقاهي والحانات التي لا تستطيع الدخول إليها، شبحاً ترابيَّ اللون كأطفال مصابين بفقر الدم، أطفال النازحين أكلة التراب والجبصين المتعجِّنَين في بطونهم كما تتعجَّن في أمعائك المعكرونة، وأنت تشمُّ بذور عباد الشمس التي تُقلى في محمصة، أو لفافات حشيش تدور من فم إلى فم. كنت كلما أمسكت بباقة من معكرونة دانة، وقبضتها بين يديك لتكسرها فوق غليان ماء صنين المبقبق في طنجرة ألمنيوم، سامعاً في منور البناية دعاياتِ تتعاقبُ متخللة مسلسلاتِ

رمضان، تذكرتَ شيئاً آخر غير هيفا وهبي في دعايات التلفزيون السوري: بيتاً من الشعر اقترن في ذاكرتك بكتب النحو والمدافعين عن الوحدتين الوطنية والقومية، يختصر قصة أب محتضر يمتحن أبناءه المتحلّقين حول فراش موته: «تأبى السهام إذا اجتمعن تكسُّرا/وإذا تفرّقتْ تكسَّرتْ آحادا»، فتسترجع نكتة الابن الجحش الذي أفسد الموعظة وخان وصية أبيه وكسر كلّ العيدان دفعة واحدة.

-تفاسير القُبلة-

وحدتك قديمة. تحجّر فؤادك في هذا الضجر المبطّن بالخطر. كم مرة تكتمت على الخوف الذي أشاعته في دمك قسوةُ نظرة كانت مسدَّدة إلى شخصٍ آخر؟ عند خروج صديقك ميم وحده، كان يستعيد مثلك، مرة أخرى، خوفه من ثلة شبّان حليقي الرؤوس قد يستوقفونه ويطلبون منه إبراز هويته قرب ساحة ساسين، متأهبين ليقصفوا نحوله كعيدان المعكرونة ويلتهموه أو يطعموه كالديدان لأسماك السان جورج، يديرون وجهه إلى الحائط ويأمرونه برفع يديه عالياً، وسلاسل الذهب تطوّق نحورهم البرونزية الغليظة، الملوَّحة بالشمس وملح البحر، ولعلّ وجومه وحزنه استفزّاهم، وكأنهما اعتداء على سعادتهم التي يقسرون أنفسهم على التغنّي بها ومطاردتها، بينما أنت ترى في أريحية أمثالهم من الشبّان وعيداً، أو نوعاً من الخطأ والانصياع.

لهذا أبغضتَ كلمة «القوّة» واشتقاقاتها، في أي مناسبة قيلت وبأي شكل، ولو دفاعاً عن النفس. ما أكثر ما سمعت، في

أثناء مواصلة تنقُّلك في بيروت، وبقائك في معظم الأمكنة واقفاً، تائهَ النظرات، مفكراً في الاستسلام التام للصمت المطبق، وأينما جلست وحدك انتظرتَ مَن سيتقدَم صوبك، نادلاً سمع لسانك الأعوج أو صاحبَ محل أو حتى عابر سبيل، ليأمرك بالانصراف، فملامحك تنضح إفلاساً وتفضح تردُدك، وأنت لا تدري أيَ كرسي ستختار في أي مقهى، وهل يحقُّ الجلوس لمن هو مثلك، مستهتراً ومسدَداً تلك النظراتِ المحيّرة على المارة، ومطلقاً تلك الضحكات التي كانت تسرّع أنفاسك، حيث يتناهى إليك من إحدى الطاولات: «طبعاً، شخصيتها قوية»، فتتغثي نفسك، غثيانها من كل الذين يثبتون ذواتهم ويفرضون أنفسهم، غثيانها عند مشاهدتك طفلاً يُعنَّف أو سماعك زعيقاً وراء باب موصد، وأخفقتَ في أن تتدارك خفقان قلبك حتى عند سماعك تأفُّفاً أو تذمَراً، وأحسستَ مراراً بقلقٍ يغمر الهواءَ الذي يمتلئ بالتهديد بغتة، وسكان بيروت يكتمون ويكشفون ويتبادلون فيما بينهم درجاتٍ متنوعة من التهديد، وأنت الأعزل، الوحيد تماماً، لفرط ما تحققتَ من إحكامك بابَ الغرفة التي آوتك انتهيتَ بخلخلته في إطاره، وكان في مقدور نسمة أن تهزّه وتقضَ مضجعك، فتتوهَمها أذناً تتنصَت عليك، أو يداً ترقَص ذلك الخشبَ الرخيص بينما اليد الأخرى تدلَ على عنوانك، لتصل دوريةُ مداهمة وتخلع بابك برفسةٍ واحدة لأن هناك جيراناً لا تعرفهم اشتبهوا بك، أنت الموسوم بشعرك الطويل ولحيتك النابتة كواحدِ من الناشطين الحشاشين المحسوبين على تنسيقيات «الثورة» السورية، أو فناناً متهتّكاً يعمل مع واحدة مما لا تعرف عدده من مؤسسات إغاثة السوريين، ربما اشتبهوا بلهجتك حين علا صوتك على الهاتف، قائلاً

وأنت تصعد الدرج «أي، توكّل خيًا» فتضاعفت تهمك، وتسارع عقابك الذي ظللت تنتظره، وساقك الأمن العامّ إلى أحد مراكزه، والدليل في جيب قميصك غرامٌ من حشيشةِ الهرمل.

غرامٌ واحد من الحشيش، من آلاف الأطنان التي يصدرّها البقاع، أودى بك إلى أيام من الذعر. كنتَ ترى نفسك، وسط آخرين موقوفين مثلك، تهرعون لتقبيل يد الضابط كأنكم في سرادق عزاء، والمعزّون واجمون على كراسٍ متقابلة، ثم ظهر شيخ مهيب فجأة، مختالاً وسطهم ومتمهّلاً ليتاح للجميع تقبيل يديه، فإذا أتت القبلة على ظاهر يده في البداية، فور طلوعه عليكم، كان تصرفكم تبجيلاً، كما يفعل المرضيّ عنه قدّام سيّده أو أبيه، رافعاً اليد التي باسها إلى جبينه تائباً ومتبرّكاً؛ وإذا أتتِ القبلة حين توسّطكم الضابط وأنتم مكبّلون، كانت جزءاً من التوسل والاسترحام للإفراج عنكم: «قسماً بالله العظيم، ما عندي كلام...»، وإذا كان ثمة وجود لكلامٍ يُقال، أو إذا كنتَ قد اهتديتَ إلى تعبيرٍ تستعطفُ به الضابط وأعوانه وتقنعهم بمعجزة، فلربما ترأفوا حقاً، أكثر من ترفقهم بإطراقتك والنظرة الوديعة الغامضة التي كنت تسدّدها على البلاط ففسّروها عجزاً عن المجابهة، أو ربما نقصاً في الرجولة استجرَ عليك مزيداً من العنف والشتائم، أخفُّها في القاموس اللبناني للشتيمة: «يا لاعقي الأحذية ولاحسي المؤخرات»؛ أما إذا أتتِ القبلة على يد الضابط، في نهاية عبوره ممرَّ الموقوفين، فسوف تكون امتناناً وتعبيراً عن شكر كبير لأنه أمر أخيراً بحبسك وسط المدمنين الذين أرشدوك إلى الرشوة.

أحسن سمسارٍ إليك، وقايض الإفراج عنك بساعة أورينت كانت تهدهدك حين تستأنس بسماع تكتكاتها في العتمة لصق أذنك، وعقرباها يشعّان في دائرةٍ كحلية، وكانت ضد الماء، وربما أفادتك إذا فكرتَ في ركوب قوارب الموت المطاطية إلى أوروبا، لكنك لم تستطع أن تبيعها على الرغم من تكرّر إفلاسك، لأنها ساعة جدّك، وقد يستريب أصحاب المحلات بأنك قد سرقتها، حين كنت تقف تحت الآرمة الضخمة لساعات أورينت عند ناصية في شارع الحمرا، مبلبلاً وسط زحام الناس. أعادتك رشوة السمسار إلى الشارع نفسه طليقاً وجائعاً، وأوقفتك قدام «ملك البطاطا» لتشتري بما تبقى معك من نقود شطيرةَ بطاطا تُشبعك، متفرجاً بعينين محمرّتين، في أثناء انتظارك، على صورة تجمع رفيق الحريري وصاحب المحلّ، داخل إطار مذهّب، وفكّرت: «أيُّهما أسمن: الحريري أم نصر الله؟» فخفت على الفور من عبور هذا السؤال داخل صمتك الطويل.

مضيتَ لتأكل شطيرتك في خليج سان جورج، وحين أطعمتَ بقاياها للأسماك المسمَّنة، اللامعة السواد، تزاحمت تلك المخلوقات حول البطاطا المقلية وأدخلتك كابوساً ساعة الغروب وذكّرتك بالموت. ألا تأكل هذه الأسماك الجوعى بعضها البعض، أسفل تلك الأبراج التي كانت منتصبة خلفك، كأضرحة فاخرة لضجر فتّاك، في هوس بيروت بالمبالغات والتضخيم والنسيان، وهي تقتدي في أبراجها بانتصاب نيويورك، بينما بقية مدن البلاد مستلقيات نائمات؟

صرتَ إذا سمعتَ مَن يقول «الأمن العام» انطبقت عليك صورة التفاف الساق بالساق في القيامة القرآنية، وأنت ترى نفسك مقيَّداً إلى ساق ضابط يمسح بك الأرض ويجرّك وراءه على الغبار مثل كيس من الرمل يربطه العداؤون على الكورنيش إلى عضلات ربلاتهم، المشدودة كخصى دافئة في البرد، وعلى مقربة منهم متسوّل مبتور الطرفين السفليين رأيته مرات كثيرة يزحف جانبياً باتجاه الروشة، ويتفرّج على الصخرة التي يرفرف فوق شائعات منتحريها علمُ لبنان.

-الرسالة-

(إلى حسن رابح)

ثمة حدٌّ تبلغه أية حياة، يفقد عنده الجدل معناه ومتعته، ولا تسعفك فيه شتيمة ولا يعزّيك سفرٌ ولا رجوع. الحصار لا ينتهي. ليل نهار، رسائل صوتية على الواتس آب، آتية من كل حدب وصوب، من كل القارات، وهناك دائماً من لا يستطيع أن يترك رسالة صوتية عند سماع المجيب الآلي، لأن هذا الحوار من طرف واحد حديثٌ بين ميّتين، لأنه يفكر في حشرجة نبرته التي ستبقى مسجَّلة إلى الأبد في أرشيف مهول، غير قادر على أن ينسى كم سيزعزعه الرفض حين تسمَع لهجته، وهو يتنحنح مستفسراً عن أسعار الغرف بنزلٍ رخيص قبل أن تقفل موظفة الاستقبال الخطّ. ما عاد في مقدوره الرد على أي اتصال أو الإجابة عن أي رسالة، وزاده إرهاقاً أن يتخيل الذين يتّصل بهم وهم يرون اسمه على شاشات هواتفهم فلا يجيبون، لأنهم سيحسبونه يبادر إلى الاتصال بسبب ضائقته، وسيتلعثم ليستدين منهم نقوداً.

كنت تذكرُ كم راجت في سورية، بعد «الوعد الصادق»، رنّة لوصول SMS مسجَّلة بصوت حسن نصر الله، وفيها سماحة السيد، مقبّلاً أقدام المقاتلين وأياديهم وجباههم، يقول: «هناك رسالة كان يجب أن تصل ووصلت». رسالتك أيضاً وصلت، كمغلّف يفتحه عنصر من زوار الفجر في البريد فلا يجد إلا ورقة بيضاء، والبياض مشبوه كروحك التي غلّفها جسدك. وصلت رسالتك، مرضوضةً في الفجر ممزَّقة الغلاف، مثلما اشتعلت رسالة لاوند حاجو المطعون بالسكاكين منذ عشر سنين، وقد فحّمَ جسده حريقٌ في فجر قدسيا، وذرذرت الجريمة بقاياه ككحل عينيه على اسم فرقته «رماد»، وأذيع النبأ في إذاعات إف. إم التي نعَتْك أيضاً، وبثّت النعي بين دعايتين لعيادات زرع الشعر كنت ترى إعلاناتها، محاطة بشجر الصنوبر، على الطريق بين الشام وبيروت، قبل صورة الجنرال عون التي كانت تغطّي جداراً كاملاً من مبنى سفارة جيبوتي.

على بعد ثلاثة أسابيع من العيد الصغير، في رمضان 2016، التقيتَ صديقك الراقص الكردي ريزان، بجسده المشدود كوتر بغلمة من أحشاء الذئاب، وكان يتقلّد تعويذة في داخلها مسحوقٌ من فَرْج ذئبة. تحدّث ريزان عن جمال الديوك التي يربّيها الأكراد في الجبال، وفشلها كالبشر في الطيران. تخيّلتَ كيف تركض ديوك اليزيديين مقطوعة الرؤوس، صبيحة عيد القربان، لترتمي الذبائح على قبور أصحابها وترقص رقصة ألمها الأخير بعد أن نزفت دماءها كلّها على الطريق الطويل إلى الموت.

رأيت فجر بيروت ينبلج كحريقٍ يصعد من البحر ويلفح زجاج البنايات، وسمعتَ ديكاً يناديك من شارع الحمرا، لا يشبه صياحه ديك بطرس ولا ديك النهار الأزرق الآتي من كنائس فرنسا. قطعتَ المسافة بين الحياة والموت في إغماضةٍ واحدة، سرَع وصولك كلُّ ما ظللتَ تؤجّله، وكلُّ ما لم تفعله، وكلُّ ما حُرمتَ منه. كانت قفزتك سقوطاً أبيضَ ما أدمى شيئاً، كسقوط العمال الذين يتهاوون من أعالي الأبراج فينشف دمهم في عروقهم على الطريق القصير إلى الأبدية. كنتَ قد امتلأتَ عاراً وخوفاً، خوفاً كثيراً تحوّل قليله إلى صاعقةٍ من الشجاعة.

لا حقيقةَ الآن أنصع من الحزن. ما فهمتَ لِمَ خشيتَ ما يُشتهى، ولِمَ اشتهيتَ ما يُخشى، وأينما أقمتَ انسجنتَ وفرَّ الجمالُ إلى مكانٍ آخر وناداك.

عَ مصر باخدلك الشام

رشا عمران

أعيش في القاهرة، لا أعرف السبب الذي يبقيني فيها حتى الآن بينما يبحث السوريون عن أية فرصة للوصول إلى أوروبا! ذات يوم تخليت عن الإقامة الفرنسية كي لا أخسر إقامتي هنا، هل تشبه القاهرة دمشق إلى هذا الحد حتى علقت فيها ولم أعد أستطيع الفكاك؟ هل البيت الذي أسسته هنا صار بديلاً عن دمشق بحيث إذا ما غادرته فإنني غادرت دمشق وخذلتها مرة ثانية؟ يخيل إليَّ أن الوطن هو تفاصيل يومية تصنعها حيث تكون، بيد أنك سرعان ما تصطدم بحقيقة أنك مجرد لاجئ وأنك غريب وحيد وبلا وطن.

عشت حياتي كلها (53) عاماً وأنا أبحث عن معنى فكرة الوطن، من الصعب جداً لمن لا يعيش في المدينة نفسها التي ينتمي إليها بالولادة والمنبت أن يعرف فعلاً ما هو الوطن. قد يبدو كلام كهذا غريباً وشاذاً، فالوطن هو الوطن بصرف النظر عن تقسيماته الإدارية، هذا ما كُرِّس في أذهاننا زمناً طويلاً، من دون أن نتجرأ على مناقشة ما اعتقدنا أنه بدهيٌ، حتى مع أنفسنا، لكن الأمر ليس كذلك، الوطن ليس فكرة مجردة، ووطني لا يشبه وطن جاري الذي كان يسكن في البيت المجاور لبيتي في دمشق أو طرطوس أو الملاجة، أو في أي مكان آخر. الوطن مفردة بائسة تغرقنا بالحنين نحو ما لا ندرك ما هو حقاً، حنيننا ليس للمفردة المجردة، حنيننا لذاكرة مليئة بتفاصيل صغيرة ودقيقة تشكل مشهداً عاماً

كبيراً، ذلك المشهد ربما يكون هو الوطن، هل نتفق إذاً على أن الوطن هو الذاكرة؟ ذاكرتي الشخصية موزعة بين أمكنة كثيرة، لم أشعر يوماً أن أياً منها هو وطني. ذاكرتي موزعة، والوطن مستقر. ذاكرتي مقطعة، والوطن ممتد ومستمر، أو هكذا يجب أن تكون الأوطان على الأقل؛ تمنحك الأمان الذي يمنحه الزمن. أن تكون حياتك هي سلسلة طويلة من التنقلات بين مكان وآخر، أنت سائح إذاً، أو رحّالة، حياتك تشبه حياة الغجر؛ ليس للغجر أوطان، وطن الغجري خيمته والأرض التي ينصب فيها الخيمة، الأرض المؤقتة. هكذا أشعر أنا تماماً، دائماً كنت أعيش في وطن مؤقت، منذ طفولتي الأولى وحتى اليوم.

طرطوس

السنوات الأولى من طفولتي كانت في مدينة طرطوس، ولدت في تلك المدينة في يوم من أيام شهر أيار / مايو. طرطوس مدينة صغيرة لدرجة يمكنك معها أن تظن أنها أقرب إلى بلدة وليس مدينة أو محافظة. حين أتيت إلى القاهرة للمرة الأولى وقارنت بينها وبين دمشق من حيث المساحة، ضحكت من فكرة اعتبار طرطوس مدينة، هي بحجم حي صغير جداً في القاهرة. في تلك المدينة عشت سنواتي الخمس الأولى، ظلت رائحة البحر القريب من بيتنا ترافقني طيلة حياتي، لم تختفِ حتى عشت في القاهرة، حيث نحّتها رائحة نهر النيل حقاً. أتذكر عن تلك الأيام من طرطوس القليل، بيتنا في الطابق الثالث في حي اسمه الصالحية، يطل على شارع طويل رأيت فيه مظاهرة غاضبة كانت الأولى والأخيرة قبل مرور زمن طويل جداً على رؤية

مظاهرة ثانية، كانت مظاهرة غضب بسبب نكسة حرب حزيران، كان ذلك في عام 1967، كنت في الثالثة من عمري. أتذكر أن والدتي شدتني عن الشرفة التي كنت أقف فيها وأمد جسدي الصغير كي أرى سبب هذا الضجيج والأصوات العالية الغاضبة. كم تمنت والدتي، لاحقاً بعد سنوات طويلة، لو أنها ما زالت قادرة على شدي لأبتعد عن رؤية المظاهرات والتفاعل معها. أتذكر الحي الذي كنا نسكن فيه جيداً؛ رائحة البيت، رائحة الحي، تلك اللهفة الطفلة التي كنت أشعر بها وأنا أركض مع أطفال الحي كلما عرفنا أن ثمة سفينة روسية رست في ميناء طرطوس: منذ ذلك الوقت كان للبحرية الروسية (السوفييتية) مرسى في شاطئ المتوسط السوري، كنا نرى البحارة الروس كما لو أنهم قادمون من عالم آخر؛ بيض وشقر وعيون ملونة، يحملون لنا ألعاباً صغيرة وأزراراً بدبابيس نعلقها على ثيابنا بفخر شديد، مرسوم عليها شعار البحرية السوفييتية! اللهفة نفسها غمرتني حين أخذني أحد أصدقاء والدي إلى مكان مبهر، واسع وبسقف مرتفع ورجال ونساء وأطفال يرتدون ملابس جميلة ويحملون شموعاً طويلة، وأصوات أجراس تقرع، وكلمات تلفظ بلغة لا أفهمها، كان يوم الشعانين لدى مسيحيي طرطوس، صديق والدي اشترى لي شمعة قريبة من طولي، ووالدتي ألبستني فستاناً أبيضَ قصيراً بورود ملونة تزنر أسفله وياقته.

بعد عامين غادرنا طرطوس باتجاه دمشق، حيث انتقل والدي للعمل هناك. غير أن طرطوس والبيت والحي ورائحة البحر ورائحة سندويتشات الدجاج المسلوق مع البندورة التي كانت تباع في دكان صغير بجوار بيتنا، ورائحة

الأحذية البلاستيك التي تنبعث من مستودع تابع لمحل أحذية أسفل البناء الذي نسكن فيه، هذه التفاصيل كلها لم تنقطع لتبدأ ذاكرة جديدة في دمشق. البيت نفسه أصبح سكناً لعمتي وعائلتها، وكنا نعود إلى طرطوس في كل العطل والإجازات المدرسية، تلك العودة المستمرة، التي لم تقتصر على طرطوس فقط، بل إلى الملاجة أيضاً، قريتي في جبل طرطوس، التي تبدأ ذاكرتي عنها بعد مرحلة الطفولة المبكرة، تلك العودة المستمرة جعلت العلاقة بين طرطوس وذاكرتي علاقة ملتبسة، ذاكرة متواصلة برائحة الانتماء إلى مدينة نزورها كما لو كنا سياحاً، لا أبناءها، إذ لم يكن لنا بيت فيها؛ كنا زواراً على بيت عمتي، وفي الملاجة كنا زواراً أيضاً على بيت جدي لأمي، هناك أيضاً لم يكن لنا بيت خاص بنا.

دمشق

لم أعرف الاستقرار في دمشق إلا لمدة تسع سنوات فقط، كانت المدة التي قضتها عائلتي في بيت مستأجر في منطقة باب توما، بعد مرحلة من التشرد الفعلي في دمشق. أنا وأخي في المدارس الابتدائية، نذهب إلى مدارسنا يومياً ونحن نتنقل بين أمكنة مختلفة، عشنا مرحلة من حياتنا كعائلة في فنادق دمشق، ومرحلة أخرى في بيوت أصدقاء أبي، ومرحلة أخرى في بيوت مفروشة، تنقلنا في أحياء دمشق، وفي كل تنقل كانت ذاكرتي الطفلة تخزن ما يتاح لها عن تلك المرحلة.

الروائح هي أكثر ما احتفظت به ذاكرتي، التي تعيد إليَّ دائماً روائح الأمكنة التي حللنا بها، كل رائحة تذكرني بمكان، أو

ببيت أو بشارع، في ذلك الوقت من الزمن كانت الروائح صافية، ودمشق كانت جسداً بكراً بريئاً، لكل مسافة فيه رائحة خاصة لا تختلط بروائح بقية الجسد. ذاكرتي وقتها كانت طفلة وطازجة أيضاً، وفيها من البراح ما يكفي لاستقبال المشاهد والروائح، على أن الرائحة التي استطاعت تنحية ما قبلها هي رائحة تسع سنوات متواصلة في بيت عشت فيه طفولتي ومراهقتي، وتأسست فيه شخصيتي التي أنا عليها الآن. لم يكن بيتاً عادياً، كانت المكتبة تحتل مساحة كبيرة منه (أصبحت عادة المكتبة جزءاً من شخصيتي: أسست مكتبة كبيرة لاحقاً حين أصبحت مستقلة، ونقلتها معي في كل البيوت التي سكنتها في دمشق، حتى اختفت تماماً حين غادرت سوريا واضطر أصدقائي إلى إعادة البيت المستأجر إلى أصحابه. الكتب وضعت بسقيفة بيت شقيق صديقة عزيزة، استشهد لاحقاً بقذيفة عشوائية. غادرت صديقتي سوريا، لم يبقَ من عائلتها أحد هناك، لم يبقَ سوى بيت في منطقة برزة، فيه سقيفة تضم صناديق كتب، أكثر من ألفي كتاب لامرأة لم تزر ذلك البيت في حياتها؛ امرأة تبحث عن رائحة وطن في مكان آخر، وتؤسس مكتبة في مكان آخر قد تغادره في أي لحظة، تاركة خلفها كتباً وعناوينَ وأسماء وتفاصيل ترهق ذاكرتها).

الوطن هو الرائحة! هل يمكنني قول ذلك؟

لم تشكل دمشق وطناً لي أيضاً، عشت دهراً فيها كما يعيش الغريب السائح. ولم تكن طرطوس أحسن حالاً، فعشت في مدينة طرطوس ما يقارب سبعة عشر عاماً (تزوجت وأنجبت وطلقت زوجي وسكنت في طرطوس بعد أن عادت

عائلتي إلى هناك إثر مرض والدي، وبعد أن امتلكت عائلتي أخيراً بيتاً صغيراً في طرطوس، عبر الاشتراك بجمعية سكنية تعاونية، يعرفها السوريون جيداً). عشت في دمشق مراحل طفولتي ومراهقتي وأول شبابي، ثم النصف الثاني من شبابي، أعرفها حارة حارة، وشارعاً شارعاً. أعرف مقاهيها الشعبية، وأعرف باراتها ومطاعمها، وأسواقها، وأرصفة أحيائها القديمة قبل الترميم وبعده. شهدت دمشق كل حالاتي، فرحي وحزني وغضبي وقهري وخوفي وتجاربي وصداقاتي وعلاقاتي الغرامية، عرفتني بأسوأ حالاتي وبأحلاها، اختبرت فيها معنى (القلة) الحرفي؛ أن لا تجد معك ما يكفيك لتكمل يومك، لا لتكمل الشهر فقط. اختبرت فيها صداقات حقيقية، وعلاقات متشابكة. كانت دمشق مرحلة اختبارات في حياتي، بعد أن انزاحت ذاكرة الطفولة إلى مكان عميق، ووسعت لذاكرة جديدة كي تحتل المكان.

الذاكرة هي الوطن! ربما يمكننا قول هذا أيضاً.

عشت في طرطوس فترة ممتدة من حياتي تقارب السبعة عشر عاماً، لم تختلف فيها طرطوس كثيراً عن مرحلة الطفولة الأولى، ما زالت المدينة الصغيرة النائمة قبل أول الليل نفسها، الشوارع ذاتها، حتى الدكاكين لم تتغير كثيراً؛ بائع سندويش اللحمة المسلوقة مع البندورة أصبح مسناً، لكنه ما زال يبيع السندويش ذاته، بعد أن تحول الدكان الصغير إلى سوبر ماركت حديث، يديره أولاده، كانوا رفاق طفولتي، معاً كنا نلعب في شوارع المدينة في طفولتنا. شيء مهم تغير في طرطوس: كان هناك بستان كبير

للحمضيات والقصب السكري (قصب مص)، كان يسمى (الناعورة)، الناعورة اختفت وحلت مكانها (حديقة الباسل)! الحمضيات صارت تزرع في كل مكان، يمكنك في الربيع أن تشم رائحة زهر اللمون والبرتقال في كل طرطوس، حيث يزرع شجر الحمضيات حتى في الحدائق الصغيرة للبيوت الأرضية. أما القصب السكري أو قصب المص فقد اختفى تماماً من طرطوس. واختفى معه ذلك الحفيف الذي كان يصدر حين كنا نمر بين أعواده في طريقنا لقطف بعض برتقال الناعورة من دون أن يعرف بنا أحد!

في القاهرة، تمتلئ محلات بيع العصائر الطبيعية بأعواد قصب السكر، إذ يشكل عصيره أحد أهم المشروبات الطبيعية للمصريين، حين شربته للمرة الأولى شعرت بخدر مفاجئ، لا أعرف تماماً ماذا حصل معي، ولم أستطع فهم حالتي تلك حتى الآن. ربما ما حدث هو استراجع طعم ورائحة طفولة قديمة كنت ظننت أنني نسيتها تماماً! «حين تعتقد لمدة طويلة أنك كائن بلا حنين، وأن الماضي لا يعني لك شيئاً، ثم يعود إليك ماضٍ منسي من مجرد طعم عصير، بخس الثمن، ستشعر أن الخدر يبدأ بالصعود في روحك شيئاً فشيئاً ليصل إلى أعلاك، إلى مركز تفكيرك، إلى حيث الدائرة التي تنغلق على الروح والعقل معاً، إلى حيث تكتشف أنك كائن مجبول بالحنين، وأن كل ما قلته عن اللاوطن واللاماضي واللاحنين هو محض رغبة مهولة في العودة إلى تلك الحياة، إلى تفاصيل صغيرة، وبالغة التفاهة، لكنها تنسج لك مخيلة عن زمن تحلم أن يعود كما هو، لا لشيء، سوى لرغبتك في أن تصنع لك وطناً يبدأ من ذلك الزمن ويمتد بك

إلى اليوم، الوطن الذي لم تعرف له رائحة ولا صوتاً ولا ملمساً محدداً حتى هذا اليوم».

حين أمشي في شوارع القاهرة، وأرى أكواماً من أعواد قصب السكر مجمعة أمام محلات العصائر، أشتهي أن أدخل بينها وأسمع ذلك الحفيف القديم، وأن أمسك بيدي عوداً وأضعه في فمي وأمتص منه سكره وحلاوته. حين يخطر لي هذا الخاطر، أتخيل ذلك القدر من الإيروتيك في المشهد، ثم تتداعى في ذاكرتي مشاهد إيروتيكية عديدة، قرأتها في بداية وعيي للقراءة، في عمر صغير نسبياً، في روايات البرتو مورافيا، وفي النسخة غير المنقحة من كتاب ألف ليلة وليلة في أجزائه الأربعة.

ثمة مشهد لا يغيب عن بالي أبداً، حين كنا نعود في عطلة الصيف إلى طرطوس والملاجة، كنت آخذ معي من مكتبة والدي بعض الكتب كي أقرأها في الصيف، كنت أقرأ كثيراً في طفولتي الثانية أو بداية مراهقتي، أقرأ كل ما تقع يدي عليه، من دون أن أجد، لحسن الحظ، من يرشدني إلى ما يجب أن أقرأ. في الملاجة، قريتي، كنت أجمع مساء أولاد عمومتي وأعمامي وأخوالي، منهم من كان يقاربني في السن ومنهم من يكبرني قليلاً، كنت أتمدد على الأرض في منتصف غرفة الجلوس الكبيرة في البيت الريفي، بجاني (لوكس) يضيء ليل الغرفة، إذ لم تكن الكهرباء قد وصلت بعد إلى قريتنا، وحولي يتمدد الأولاد والبنات وأنا أقرأ لهم مقاطع اخترتها مسبقاً من روايات قرأتها. كانت المقاطع المختارة في أغلبها إيروتيكية، خيالاتنا الصغيرة كانت تحاول التقاط

ما وراء اللغة، لتتخيل مشهداً مصوراً لما نقرأه، كنا كمن يشاهد شريط بورنو مصوراً!

الوطن هو اللغة، هكذا أفكر أحياناً!

يسألني الكثير من الأصدقاء لماذا لم أذهب، كما غيري، إلى العيش في أوروبا بعد خروجي من سوريا، خصوصاً أنني دائماً ما أتحدث عن فقداني الكامل للأمل في العودة، فأوروبا ستقدم لي لأمان الذي لا تقدمه أية دولة عربية، لا أحد هناك سيطردني كما يمكن أن يحدث في بلاد العرب، وسأحظى بشيخوخة محترمة إذا ما امتد بي العمر، وهو ما ليس متاحاً أيضاً في بلاد العرب المنحازة إلى القوة على حساب شعوبها. سأكون هنا امرأة عجوزاً ووحيدة وضعيفة، في بلاد لا تحترم العجز والضعف، ولن أخشى هناك من أن أصاب بأمراض خطيرة، فتلك البلاد تتكفل بعلاج المقيمين على أراضيها من أية جنسية كانوا، وهو ما لا تفعله بلاد العرب التي تستكثر العلاج على أبنائها قبل الغريب. أفكر كثيراً في كل ذلك، وأعترف بأنني أخاف من المستقبل، ولا أعرف ما قد يحدث لي لاحقاً، لكنني في الوقت ذاته أفكر في قدرتي على التواصل مع المصريين من دون أي عناء؛ اللغة المشتركة تجعل من الشعور بالغربة شعوراً واهياً، يظهر في الأزمات النفسية الكبيرة فقط. أنا لست من هواة تعلم اللغات، وليست لديَّ هذه الموهبة؛ أعرف لغة واحدة فقط غير العربية، هي اللغة الإنكليزية، ولا تكفي للعيش في بلد لا يتحدث بها. كما أنني في سن فقدت فيها الكثير من مرونتي على التأقلم مع الحياة، صرت أكثر هدوءاً وسلاماً، ولم أعد قادرة على مصارعة الحياة بيومياتها. لا قدرة لي مجدداً

على البدء من جديد في مكان آخر، على انتظار كل شيء؛ موافقات وإقامة وضمان صحي ومساعدات، وكمية مذهلة من الأوراق التي تحتاج نشاطاً خارقاً لمتابعتها، وتحتاج مترجماً لها. هذا يعني أنني سأظل في المحيط السوري، أدور في دائرة واحدة، لا تتيح لي أي اختبار جديد، أعيش في مجتمع مختلف من دون أن أتمكن من الاقتراب من عتبته. هل من غربة أكثر من ذلك؟!

أمشي في شوارع القاهرة المزدحمة، أرافق النيل في مساره، أذهب إلى الأحياء القديمة، التي يشبه بعضها دمشق القديمة. أذهب إلى البارات والمطاعم والمقاهي والحدائق والنوادي، أتسوق في الأسواق الشعبية وفي المولات الكبيرة، أتحدث مع سائقي التكسي ومع الباعة ومع بوابي العمارات، أتحدث مع الجميع في كل شيء، عن الغلاء وعن الطقس وعن الازدحام وفي السياسة وفي الدين، عن سوريا وعن دمشق، عن الشوام كما يسمون كل من ينتمي إلى منطقة بلاد الشام، عن المطبخ السوري وعن قدرة السوريين على العيش بكرامة في بلد صعب وشحيح الفرص مثل مصر. ثمة مشترك مع الجميع، من أي شريحة كانوا، مشترك يجعل امرأة مثلي في الثلث الأخير من حياتها، ممتنة لشعور لا يراودها، ممتنة لأن الحديث عن المنفى وعن الغربة هو حديث مترف بالنسبة إليها، فاللغة المشتركة مع الجميع، اللغة التي تكفل لها حرية الاختيار بين العزلة و الاختلاط، وبين أن تحيط نفسها بسوريين فقط وأن تمد خطواتها نحو المصريين من دون خوف، ما يتيح لها مزيداً من الاختبارات.

أعيش في قلب القاهرة، في وسط البلد، في ميدان التحرير تماماً، بكل ما يشكله وسط البلد وميدان التحرير من رمزية عالية للمصريين وللعرب عموماً، وسط البلد القاهري والقريب من أحياء القاهرة القديمة، الحسين والسيدة والباطنية والأزهر والمعز، والأحياء الأحدث، جاردن سيتي والزمالك والدقي. وسط البلد هذا كان شخصية متواجدة دائماً في الروايات المصرية التي قرأتها في مراحل حياتي، وميدان التحرير له ما له من رمزية ثورية وتغييرية منذ بداية عام 2011، أحسب أنه لو اقتصر الأمر على تونس من دون أن يمتد إلى مصر، لما حدث كل ما حدث في بلادنا العربية. مصر كانت دائمًا مثلاً يحتذى به لباقي العرب، مصر بتاريخها العظيم وبما قدمته للعالم من حضارة وفنون وإبداع، أكتشف اليوم وأنا أشعر بالأسى للحال التي وصلت له مصر العظيمة، أنها سبقت سوريا بمئة عام، على كل الأصعدة، سبقت كل بلاد العرب حتماً. مصر أمة ودولة، حين كانت باقي دول العرب مقاطعات وأقاليم لم تتغير كثيراً سوى بأسمائها، والقاهرة مدينة حقيقية، قد تكون هي المدينة الوحيدة في بلاد العرب التي لها صفات مدينية، لا تشبه القاهرة دمشق إلا بمشاهد سطحية، فالجوهر مختلف. لا يعني ذلك تفضيل واحدة على الأخرى أو تمييز واحدة عن الثانية، بل هو مجرد توصيف لما أراه في القاهرة.

يستهويني المشي في حارات القاهرة القديمة، في شارع المعز، وفي بعض شوارع الحسين، أرى البيوتات الضخمة القديمة، البيوتات التي مر عليها الزمن من دون أن يترك أثره السيئ عليها. أتذكر دمشق القديمة، باب توما، باب شرقي، القشلة، حي الأمين، تلك الشوارع التي كان المشي اليومي

فيها يمدني بطاقة إيجابية تمسح القلق والتوتر عن روحي، كنت أراقب البيوت القديمة التي تحولت معظمها إلى مطاعم وبارات، وهو ما لم يحدث في القاهرة، لأسباب اجتماعية وإدارية، أتذكر تلك البيوت، وأتذكر كيف كنت أتخيل الذاكرة المتوارثة عنها، ثمة عائلة قديمة سكنت في هذا البيت أو ذاك، عائلة كبر فيها الأم والأب أصبحا جدّين لأبناء وأحفاد كثر، يأتون إلى زيارة بيت العائلة القديم؛ أبناء وأحفاد يحكون عن ذكرياتهم في هذه االبيوت، عن ذكريات اللعب في الشوارع الضيقة مع أولاد الحارة. أبناء هذه البيوت وأحفادها لم يتنقلوا كثيراً، لم يبدلوا مدناً وبيوتاً عديدة في حياتهم. ربما كان الشتات السوري الأخير هو التنقل الوحيد لهم. أعرف كثراً منهم، أعرف حنينهم المضني إلى دمشق أو إلى مدن ثانية وبيوت عاشوا فيها طيلة حياتهم، حنينهم ذاك لا أعرفه، لا أشعر به، فما من مكان سوري محدد أشتاق إليه، ما من بيت محدد أشتاق إلى الجلوس بين جدرانه. هناك بيوت تحتفظ بذاكرة عن أصحابها، يخيل إليَّ أحياناً أن جدران تلك البيوت تئنُّ من الحزن على فراق أصحابها، تلك بيوت لسلالات عائلية واحدة، بيوت لم يتبدل عليها بشر كثر فتعجز عن الاحتفاظ بتفاصيلهم. لم يكن لي يوماً بيت كهذا، فأنا أنتمي إلى البيوت العابرة، لا البيوت المستدامة. هل لهذا السبب لا أشعر بالحنين نفسه الذي يشعر به سوريون كثر؟! حنيني مختلف، له طعم آخر، لا يعرفه من ليس في حالتي، حنيني مستل من فقدان الأمل، ما من مكان أعود إليه في سوريا إذا ما حدثت المعجزة قريباً وحصل التغيير! لا بيت لي في دمشق التي أشتاق إلى حياتي فيها، لا مكان لي في طرطوس أو الملاجة قريتي، لن يقبلني الناس هناك، يقولون

عني خائنة! الحياة تغيرت كثيراً هناك، تخبرني والدتي التي ما تزال تعيش متنقلة بين طرطوس والملاجة: إن الناس تغيروا، لم يعودوا هم ذاتهم، لن تتمكني من العيش هناك. تتابع قائلة: لن تعرفي كيف ستتعاملين معهم، لن يرحبوا بك أصلاً، لا تفكري في العودة.

التفكير خارج المكان المعتاد، ونصفي ما زال هناك، نصف قلبي ونصف روحي ونصف عقلي، سنوات هنا وأنا أحاول خلق بعض التوازن في حياتي لأستمر في العيش، المفارقة المدهشة أنني لأول مرة في حياتي بعد استقلالي عن عائلتي، أسكن في بيت مستأجر لمدة أربع سنوات متواصلة، قد تمتد إلى ما لا أعرف، كان يجب لأشعر ببعض الأمان أن أؤسس بيتاً لي على عادتي في دمشق. غالبية السوريين في القاهرة، حين قدموا إلى هنا، سكنوا في بيوت مفروشة، كان الجميع يعتقد أنها مسألة وقت قصير وسيعودون إلى سوريا. الوقت القصير أصبح سنوات طويلة، وغالبية السوريين تركوا مصر قاصدين أوروبا عبر طرق مختلفة، لم يتركوا خلفهم شيئاً هنا، معظمهم يحمل معه مفتاح بيته في سوريا، الفسطينيون فعلوها قبلهم!

أنا التي لا بيت لي هناك أعلق مفتاحه في عنقي وأحلم بالعودة إليه، أعيش في القاهرة، في بيت مستأجر فرشته كما أحب، وأسست فيه مكتبة تكبر يوما بعد يوم، جدرانه تمتلئ بلوحات أصلية مهداة من أصدقاء فنانين، لوحات هي ثروتي الوحيدة في الحياة، مثل أصحابها، أصدقائي، أعيش حياتي هنا بهدوء لا يتناسب مع ازدحام القاهرة وضجيجها، هدوء ظاهري، ففي الباطن ثمة عاصفة من القلق والخوف

والحنين تكاد تطيح بي كل حين، أطاحت بي ربما وأتلفت قلبي حقاً لا مجازاً. أعيش في القاهرة وحيدة، لا عائلة لي هنا، أستعيض عن العائلة بالأصدقاء، وأستعيض عن شوارع دمشق بشوارع القاهرة، وعن بحر طرطوس بالإسكندرية. وحدها الملاجة، قريتي، أذهب إليها بخيال السائحة، إذ لا شيء يشبهها هنا، ولا تشبهني الآن هي، أراها كما أحب أن أراها، ربما أرى سوريا كلها، أحياناً، كما أحب أن أراها.

الوطن هو الخيال، هكذا أظن احياناً.

أعيش في القاهرة، لا أعرف السبب الذي يبقيني فيها حتى الآن، أعود دائماً إلى الأسئلة نفسها: ما الذي يبقيني هنا بينما أصبح السوريون معظمهم في أوروبا؟! ما الذي جعلني ذات يوم أتخلى عن الإقامة الفرنسية كي لا أخسر إقامتي في مصر؟ لا تشبه القاهرة دمشق إلا في الظاهر، أم أنني لم أنتبه إلى أنها تشبهها إلى هذا الحد حتى علقت فيها ولم أعد أستطيع الفكاك. هل البيت الذي أسسته هنا صار بديلاً عن دمشق بحيث إذا ما غادرته أكون قد غادرت دمشق وخذلتها مرة ثانية؟ هل ما أفعله هو أنني أحضر الشام إلى القاهرة كل يوم كي لا أفقد توازني؟ أم أنني فعلاً استطعت التخلص من شرك العلاقة مع الوطن؟ لم تكن دمشق وطناً لي كما هي لغيري، ولم تكن طرطوس كذلك ولا الملاجة، والقاهرة ليست وطني أيضاً، فلا ذاكرة لي هنا، ذاكرتي عنها وذاكرتها عني جديدة. الوطن امتداد وتواصل واستمرار، وأنا حياتي قائمة على البتر.

كيف نصنع وطناً بديلاً في أمكنة ليست لنا إن كنا في أمكنتنا أصلاً بلا وطن؟!

أريد أن أقتنع بأن الوطن هو تفاصيل يومية نصنعها حيث نكون، أريد أن أقتنع بهذا كي أتمكن من العيش. أقرأ وأكتب وأشتري أشياء خاصة بالمنزل، أمارس الرياضة، لدي أصدقاء. أقع في الغرام. أعرف البارات كلها، أذهب للرقص. أخرج في رحلات داخلية مع الأصدقاء. أطهو في بيتي، طعاماً سورياً، وأدعو أصدقائي إلى العشاء. أتشاجر مع سائقي التكسي، أتعرض للتحرش في الشارع، أحضر الفعاليات الثقافية، أذهب للسينما والمسرح ومعارض الفن التشكيلي، أفعل كل ما يفعله أهل هذا البلد، هذه التفاصيل الصغيرة المخادعة، التي تجعلني أظن أنها هي الوطن. لكن في آخر الليل، أكون وحدي في بيتي، أذوب من الحزن حين أشاهد نفسي في المرآة، امرأة خمسينية، وحيدة، لاجئة، غريبة، لم تعرف يوماً ما هو الوطن.

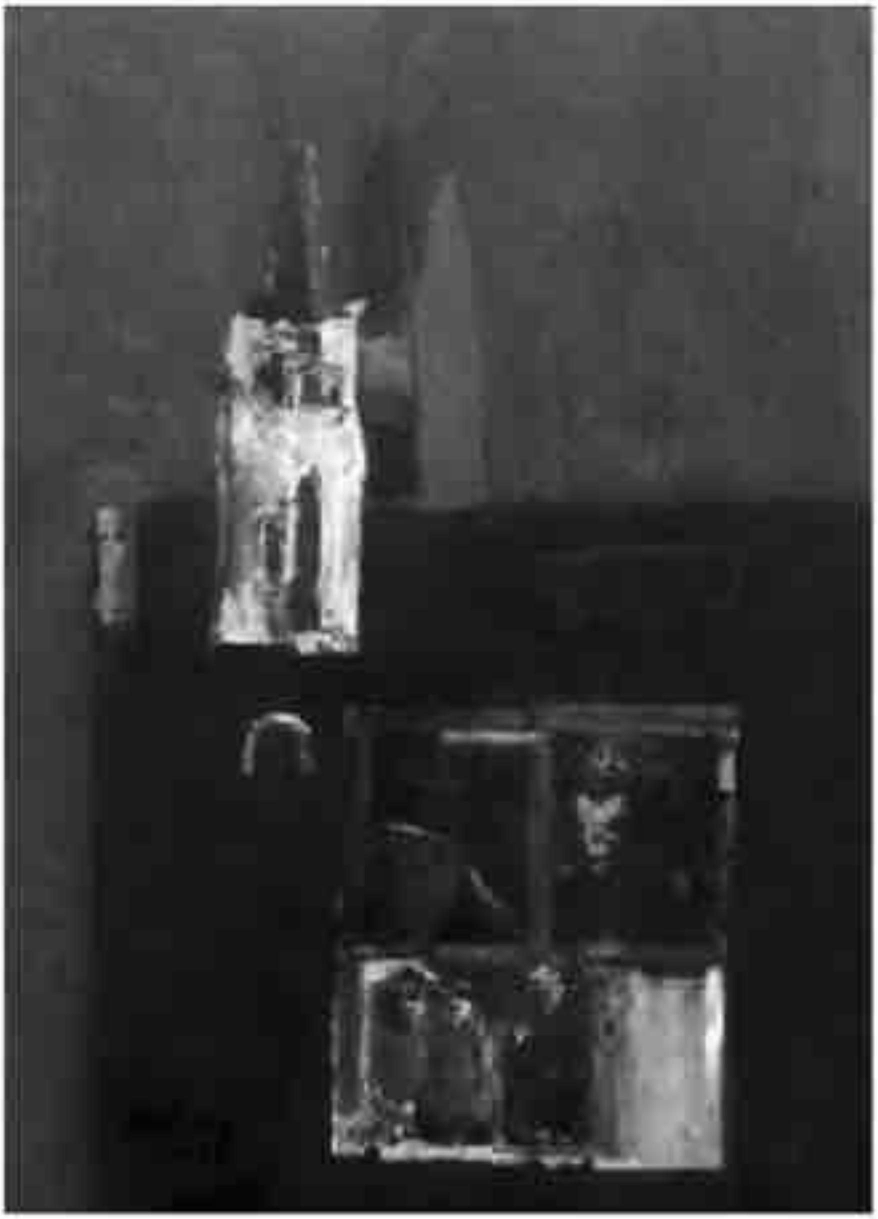

زينة عيد الميلاد

عدي الزعبي

(1)

في طفولتي، كنت أخلط دوماً بين رأس السنة وعيد الميلاد، وبين يسوع وخالي، وبين بابا نويل وأحد أصدقاء عمتي الرسامين: يشترك بابا نويل والرسام باللحية الطويلة، ويشكل خالي مع يسوع ثنائياً خاصاً يختلف عن عالم المسلمين الذي أعيش فيه، أما العيدان؛ فيجمعهما شجرة الميلاد المزيفة، الرخيصة، البلاستيكية، التي نصّبت نفسي مسؤولاً عن تركيبها وتزيينها في سن مبكرة جداً. كنت أعرف أن الأقارب من طرف الأب، ومعظم الأصدقاء في المدرسة، لا يحتفلون بالعيدين، أي أنهم لا يزينون غرف الجلوس بشجرات مزيفة: كانوا مسلمين.

أما أنا، فكان عيدي الشجرة الروسية المزيفة الفقيرة، كفقر عائلتي السعيدة الصاخبة. والشجرة، بالطبع، في حاجة إلى الزينة، والزينة غالية الثمن، يصعب الوصول إليها. لذا، اقتصرت زينتي على مجموعة صغيرة من الكرات الزجاجية الحمراء والخضراء والبيضاء التي جلبها أبي في إحدى رحلاته إلى دول المعسكر الاشتراكي: كانت الكرات سهلة الكسر، تلمع أكثر مما تلمع النجوم القليلة في سماء دمشق، لتظهر على سطحها الملوّن انعكاسات مشاعري من دون أقنعة. كنت أعامل جواهري الثمينة هذه بهوس ديني

متعصِّب: إن كُسرت الكرة الزجاجية، لا يستطيع أحد تعويضها. ولكن، بالطبع، كل سنة، كنا نكسر كرتين أو ثلاثاً، ومع كل واحدة، يتناثر قلبي الغض قطعاً صغيرة، ترميها أمي في سلة المهملات، بمهارة ربة المنزل التي تنظّف أرضية البيت بسرعة قياسية من دون أن تلتفت إلى مسببات أزمة ما كسرناه ولا إلى نتائجها.

مبكراً جداً، أخبرني الجيران وزملاء المدرسة أنه لا يوجد بابا نويل، وأنه خيالات كفار غربيين، مهاجمين شجرتي بعنف بالغ، سائلين عن سبب إيماني، أنا المسلم، بما يؤمن به الكفار. لم أحر جواباً، إلا أنني، مسلم، ولكنني، بطريقة لا أعرفها، مسيحي: هذا الجواب أغضب الأطفال المسلمين، والمسيحيين أيضاً: أنت، وأهلك، لست منا، ولن تكون. كان لعنف الأطفال حينها، من الطرفين، أثر لا يمحى، حفر فيّ خوفاً لا يهدأ، ولا يموت، ولا ينتصر، خوفاً يتجدد كل مرة أخالف فيها الرأي العام السائد؛ فالأطفال، كما تعلمون، كائنات مخيفة، لا تتقبَّل الاختلاف ولا تؤمن به. ينجح الأطفال، أكثر مما ينجح البالغون بكثير، في عزل المختلفين بشكل كامل، في رفضهم، في جعلهم لا مرئيين، غير مسموعين، شفافين كشعاع الشمس الأخير. ويعرف الأطفال جيداً كيف يجبرون أقرانهم على الانخراط في التماثل المميت الكبير.

في أثناء عودتي للبيت، عشية عيد الميلاد الأخير في بريطانيا العظمى، قبل توجّهي نحو المنفى التركي، وجدت على طرف الشارع علبة كرتونية فيها كرات الزينة الزجاجية مكسورة متناثرة: يجلس بجانبها طفل يبكي وينوح، وخلفه أبوه، يواسيه، من دون نجاح، قائلاً إنه سيشتري له علبة

أخرى، فهذه الكرات رخيصة ومتوفرة في كل سوبر ماركت في المدينة. أتركهم وأحثّ الخطى إلى بيتي الذي يخلو من شجرة الميلاد، لأجلس وحيداً، فيما أغنية «لاست كريسماس» تصلني من جاري الصيني، الذي قرر هو أيضاً أن يمضي العطلة في الجزيرة الماطرة، من دون شجرة، كأمي، التي قالت إنها لن تُخرج الشجرة هذه السنة من الصندوق، فالحرب قائمة.

لم أطلب يوماً من يسوع شيئاً، ولكنني سألته في تلك العشية أن يتيح لي مرة أخرى أن أجلس بجانب أمي في دمشق، لنزين الشجرة، فرحاً بفرحتها بي، لأتمنى لها سنة طيبة، ولتطمئنني بأن لا إجابات ثقافية عن المعضلات الميتافيزيقية والاجتماعية والعاطفية: كن ما تكون، في هذا الكوكب الكبير المتعولم الذي يضيق بنا وبشجرتك الصغيرة. كن ما تكون، فستبقى، طفلي المدلل الصغير.

بعد ساعات، طرقت باب الصيني، لأمضي العيد معه، ونأكل «فاست فود» صينياً، ونشرب بيرة سوداء إيرلندية، ونستمع إلى جورج مايكل، ثم إلى شوبان، ونتأمل تمثال بوذا البدين، الذي يتأملنا بدوره، غارقاً في عجز النيرفانا الممل الكئيب الكبير.

(2)

في مقهى محطة القطار، في العاصمة البشعة أنقرة، تأتي الأغنية بعيدة، سمجة، لئيمة، مملة. لا يوجد زينة ميلاد على الإطلاق على امتداد البلد، لأنه لا يوجد مسيحيون، بالطبع،

في البلد العلماني المسلم الأكبر: انتهى التواجد المسيحي، تدريجياً، بدءاً بالهولوكست الأرمني، ثم الخروج اليوناني التدريجي، الذي اكتمل في نهاية السبعينيات. أتأمل مقهاي الحزين: صحون معدنية وكؤوس زجاجية قديمة وكراسي حمراء ممزقة الجوانب، وصور باهتة لموانئ خيالية ونساء لا وجود لهن إلا في التلفاز. يشبه المقهى مقاهي سورية في الثمانينيات، مقاهٍ لم تعد موجودة بعد الحرب.

تأتي القطارات، وتغادر؛ ويأتي غيرها، ويغادر. في النهاية، تخلو المحطة تماماً، إلا مني أنا، ومن جورج مايكل، ومن أغنيته المزعجة: يطول انتظاري هنا، يطول ليعود بي إلى دمشق في منتصف الثمانينيات، عندما اشترت ابنة الجيران ذات السبعة عشر عاماً بوستراً كبيراً للنجم الإنكليزي، فتى أحلامها الوسيم، وأنفقت كل ما تملك كي يشاركها غرفتها على الحائط، غرفة فقيرة أثاثها مستعار ونافذتها مكسورة: في قلبها، يشع جورج مايكل بابتسامته الساحرة وقميصه المفتوح وعينيه العسليتين الناعستين الفاتنتين.

أترك المقهى، طارداً أرواح الماضي، لأركب القطار إلى إسطنبول: جبال، وصحارى، وسهول خضراء، تتوالى بسرعة، وتتداخل، كأنها تقول لي ما لا يُقال. أردد، على الرغم مني، مع الإنكليزي أغنيته العزيزة على قلبي: لم يفكر حبيب جارتي يوم أطلق أغنيته هذه في أنها ستلاحق طفلاً صغيراً من حي الأكراد الدمشقي إلى مدينة نورتش الصغيرة في موطنه في إنكلترا، إلى قطار يحيل الزمن مرئياً بين أنقرة وإسطنبول؛ لعنة من زمن مضى، أو لم يمض. أرى بأم عيني على هذه الأرض الإغريق يتركون مدنهم ليأتوا إلى طروادة

في آسيا الصغرى، بكل فلسفتهم وهمجيتهم وأساطيرهم وسخفهم وبطولتهم؛ ومسلمين يمدون دينهم ونفوذهم على الأراضي التاريخية للإمبراطورية البيزنطية، ويفتحون إسطنبول قالبين العالم رأساً على عقب؛ وأتاتورك معلماً دولة الخلافة؛ والانتقام السلمي: نجاح هائل لأردوغان في الانتخابات: أشجار وتلال ورمال وحجارة لم يعنها كل هذا الكلام الفارغ، العميق، المصيري، القديم كأنه مزحة سمجة، كالأغنية نفسها.

فجأة، تقفز إلى الذاكرة صورة فتاة أخرى، لتختلط بصورة ابنة الجيران. أحاول أن أميز بينهما: لا فرق، يقول القطار، قاطعاً المسافات بعنف الغربيين العلمي الماحق: لم تخطر في بالي الفتاة التي أحببتها في مراهقتي منذ سنين. كانت تحب «لاست كريسماس»، تحبها كثيراً. بعد انفصالنا، هاتفتها مرات ومرات، قبل زمن الموبايل القبيح السهل. بعد ست أو سبع مرات، أجابت. وضعتُ «لاست كريسماس» على سماعة الهاتف. أجابت بهدوء، «لا تتصل مرة أخرى، أرجوك». شعرت أن نهاية العالم اقتربت، أن الزمن لن يتحرك، أن حياتي انتهت: كنت في السابعة عشرة، وهي في السادسة عشرة: غارقاً في حب لا ضفاف له، مؤمناً بان المحبوبة أهم من العائلة، والأصدقاء أهم من المدرسة، والمرح أهم من كل شيء؛ كنت واثقاً من أنني سأدرس الفرع الذي أريده لأجد مهنة أحبها: مجموعة أخطاء لا مهرب منها، كالحب الأول نفسه.

لم أستطع استعادة ملامح وجهها، أو اسم عائلتها. أين انتهت محبوبتي البريئة، التي سمحت لي بتقبيل شفتيها،

وصفعتني حين لمست نهديها. هل تزوجت؟ هل لديها أولاد؟ هل ما زالت تحب جورج مايكل، أم أنها تكبّرت مثلي وأصحبت تسخر منه؟ هل انحازت للنظام أم للثورة، أم بقيت خارج السياسة؟ هل تتذكرني، أم أنها، مثلي، نسيت الأقل أهمية لتحتفظ بالأكثر أهمية من علاقتنا البريئة السريعة؟ قصف النظام بعنف الحي الذي كانت تسكنه: هل ماتت؟ أم ركبت البحر إلى أوروبا، أم أنها الآن تتأمل سماء لا نجوم فيها، في مخيمات الذل في لبنان أو تركيا أو الأردن؟

يمضي القطار، وصورة واحدة لفتاتين مختلفتين تملأ الذاكرة والمشهد: فتاتان تشتركان في محبة «لاست كرسماس»: التقيت بالأولى، ابنة الجيران، بعد عقود: قالت بصوت خجول نحيل خائف، إنها عانس: لم تتزوج ولم تترك بيت أهلها. ولكنها، في ذاكرتي، بقيت تلك الصبية المفعمة بالحب والأمل، صديقة جورج مايكل المثيرة. أما الأخرى، الحب الأول، الضائع، الفتيَ أبداً، فقد ضاعت ملامحها، ومستقبلها، من ذاكرتي، في حرب لا نهاية لها.

(3)

في المكتبة الكبرى في كوبنهاغن، عشية عيد ميلاد السيد المسيح، نتجمّع نحن الغرباء، ديدان الكتب المُضجرة، ويقوم على خدمتنا شباب وشابات دانماركيون في مقتبل العمر، يوفرون لنا الكتب والقهوة والخدمات الضرورية: لا قرّاء دانماركيون اليوم هنا!

تقع المكتبة على أحد القنوات الكثيرة التي تخترق العاصمة: عملية تجديدها كلّفت ملايين الدولارات، ليحافظوا على طابعها القروسطي القديم، ويجددوا الجزء المطل على القناة: الجوهرة السوداء، أسموها، لسبب ليس بالعميق؛ شكلها الخارجي جوهرة سوداء. المكتبة متصلة بالمتحف اليهودي، حيث تقبع بقايا أغراض اليهود الذين لاحقهم هتلر من بيت إلى بيت، ومن زنقة إلى زنقة، حين احتل المدينة.

أتجول في المكتبة شبه الفارغة بكسل وملل وبطء: عتمة الظهيرة تقرص الروح؛ دوريات قديمة مغلفة بفخامة، لا يفتحها أحد، أشبه بكاسات الكريستال التي لا نستخدمها في كل بيت سوري. آسيويون وهنود وأفغان وعرب في المقهى، حول شجرة الميلاد المنسية كسجادة صلاة في بيت المسلم العلماني؛ صورة كبيرة لنساء عاريات: معرض فني سيقام بعد رأس السنة؛ عرض لشراء سيارات بأسعار مخفضة؛ وكاتب شهير لم أسمع به ألقى محاضرة قبل يومين: ما زالت ابتساماته معلقة في الفراغ.

كلب ضخم يحدّق فيّ من الزجاج في الخارج. أخجل من نظرته، أدير وجهي، ثم أنظر بطرف عيني. ما زال يحدّق. أطلب فنجان قهوة:

«ستشربه هنا أم تيك أوي؟» أتردد في الإجابة. تتأفف الشقراء.

بالطبع، لحن «لاست كريسماس» يملأ المكان.

على طاولة الخدمة، ملصق يدعو إلى التبرع لأطفال سوريا: ثلج، وفتى يبكي، وكلام بالأسود، وعلامة تعجب ضخمة!

أجلس لأقرأ قصصاً للكاتب الإيراني «صادق هدايت»، مترجمة إلى الإنكليزية. هدايت كاتب موهوب، قلمه حار ودقيق وجارح: شكّل الرجل ثورة في الأدب الفارسي، بانحيازه للغة السهلة القريبة من العامية وللناس العاديين. كما كان تقدّمياً، يدعو إلى التخلص من الخرافات والسحر والشعوذة؛ وفاشياً، يكره العرب، أولئك السفلة راكبي الجمال الجهلة الذين فتحوا بالسيف بلاد الحضارة؛ فارس العظيمة. ولكن الروح الفارسية تغلبت على البداوة والتخلف، وعادت لتشع مرات عديدة في تاريخ الإسلام نفسه. اليوم، تبعاً لهدايت، ما زال العرب جهلة يركبون الجمال، وعلى فارس أن تتخلص من هذا الإرث البشع. قصصه القصيرة ومقالاته وسجل رحلاته ساحرة باهرة، بصدقها وحساسيتها وضعفها وقوتها: انتحر صادق هدايت عن عمر يناهز السابعة والأربعين عام 1952، وحيداً يائساً بائساً في منفاه الباريسي، في الغرب الذي سحره ونفر منه وأحبه وسلّمه للعزلة الأبدية.

عنوان القصة «الأدعية»، وتحكي قصة امرأة في مدافن الزرداشتيين، في ذلك الزمن البهي، قبل مجيء الإسلام. نتبع الموتى الذين تُروى القصة من وجهة نظرهم: تسأل المرأة في يومها الأول بعد الموت زملاءها عن معنى الموت والحياة، وما الذي سيحصل لهم. الموتى، كالأحياء، حائرون لا يعرفون الإجابات. جرت العادة على أن يقرأ أهل المتوفى له الأدعية لمدة ثلاثة أيام ليلاً، كي تستريح روحه؛ ولكن ابنة

المرأة، التي تبنّتها وربّتها، لم تأت إلى المدافن. يحتج الموتى، ويطالبون بلعن البنت، كما كانوا يفعلون مع الأبناء العاقين. يهبّون جميعاً لزيارة بيت المرأة لحل لغز غياب ابنتها، ليجدوا البنت تلهو مع عشيقها، بحب واطمئنان. ترفض المرأة لعن ابنتها، مستذكرة حبها القديم، قائلة إن المحبة أهم ما نملك.

أسأل، قبل مغادرتي المكتبة: هل ستفتحون يوم الاثنين، بعد الميلاد؟

- لا، المكتبة مغلقة إلى يوم الثلاثاء.

- آها.

أغادر والحيرة تكاد لا تُرى في وجهي الضائع بين القبعة الضخمة والشال الصوفي المحيط بعنقي. ما الذي سأفعله طيلة هذه المدة في الشمال البارد؟ أتجول لساعات، مفكراً في الفارسي الفاشي المبدع؛ أيقظت قصته أعمق مخاوفي: أن يموت أبي أو أمي ولا أستطيع حضور الجنازة. حصل هذا لأصدقائي، ولم يفهموا طبيعة هذا العنف الذي نزل بهم. كان أبي يزور أباه كل عيد، في الفطر وفي الأضحى، لينظف قبره، ويضع شتلة صغيرة، ويخبره بقصصنا، الجيدة على العموم: لم يبك يوماً، ولكن دمعه كان دائماً ظاهراً جلياً. لم يزر أبي جدي منذ بداية الحرب. أعتقد أن جدي، كبطلة القصة، سيغفر لنا تقصيرنا، كما سيغفر أبي لي تقصيري: ولكنني لن أغفر لنفسي لو وقع المكتوب في غيابي: ما حصل لأصدقائي يفوق طاقتهم، وشعورهم بالذنب لا يُمحى: تركنا

البلد لعجائز لا يعرفون ما الذي سيفعلونه، قبل الموت وبعده، في بلد فارغ خاوٍ كئيب.

أتابع تجولي في البلد، على دراجة هوائية، لساعات، من دون هدف، «قلقاً كأن الريح تحتي»، مدندناً «لاست كريسماس»، كترتيلة كنسية، ليغمرني تدريجياً امتنان عملي للفاشي الفارسي: المحبة، بالطبع، هي الإجابة عن كل الأسئلة. ربما لن أستطيع ترتيب ذاكرتي، أو فهم الماضي، أو الحاضر، أو المستقبل؛ ربما سأنسى أسماء أصدقائي وحبيباتي وشوارعي ومدارسي ومطاعمي المفضلة؛ وربما، لن أرى أمي وأبي مرة أخرى، ولن أحضر جنازتيهما، ولن أزور قبريهما؛ ولن أقول لابني ما قاله أبي لي أمام قبر جدي: يوماً ما سيرزقك الله بأولاد، وعندها ستفهم الرغبة في التحكم بحياتهم، لتحميهم من زمن لا يرحم، وستفهم عدم قدرتك على تركهم يجرّبون ما جرّبته أنت وما لم تجرّبه، وستفهم الغفران لكل الأخطاء، وستحيا حياتك الممتدة في حياتهم. لن أقول هذا لابني على قبور أسلافي؛ ولكنني سأمنحه ما منحني إياه والديّ: محبة صادقة، عادية، سهلة، كريمة، تمتد كصلاة ليلية من دمشق إلى الدنمارك؛ محبة للموتى، وللأحياء، ولأشجار كثيرة، فقيرة وحيدة، لا يزينها أحد في عيد الميلاد.

المنفى داخل المنفى

عروة مقداد

تبدو المسافة بين البيت والمنفى كجبل جليد انفصل عن كتلته الأم. يتكسر الجبل في محيط متلاطم الأمواج فيتحول إلى أجزاء متفرقة، تتسع المسافة بين الأجزاء، ثم تذوب على نفسها بالتدريج، لتختفي واحدةً تلو الأخرى. إنها رحلة تنقطع فيها الصلة مع الألفة التي تتيح لنا التعايش مع محيطنا، ليحل مكانها «تغريب» يزيد انفصالنا عن الواقع، ويدفعنا نحو العزلة والكآبة، وربما يصل بنا في نهاية المطاف إلى الانتحار.

قبل سبع سنوات، عندما خرجت من عين ترما في الغوطة الشرقية سيراً على الأقدام متجهاً نحو الجنوب مسقط رأسي، لم أدرك أنها المرة الأخيرة التي سأرى فيها منزل العائلة. وطوال السنوات التي مضت، كنت أفكر: ماذا لو عرفت أنها المرة الأخيرة التي أشاهد فيها مفردات الألفة التي شكلت صلتي مع العالم؟ وأنها ستدمر بالكامل، وسيموت الكثير من الاصدقاء في المظاهرات وتحت القصف، وستتحول بساتين الغوطة التي أمضيت فيها شطراً من مراهقتي إلى واحدة من أشرس جبهات القتال، يقصفها الطيران السوري الروسي بشكل يومي. كيف من الممكن توديع ذكرياتنا؟ الروائح المألوفة، والصور الأنيسة؟ اللمسات والتواصل الحسي الذي ينمو في «المنزل» حبلنا السري مع

العالم. الألفة التي تُخلق في البيت والحارة والطرقات وأماكن العمل والتقاء الأصدقاء.

عند دخولي مدينة حلب منتصف 2012 كان، قد مضى عام على مغادرة منزل العائلة. هالني مشهد المدينة المدمرة، وتصاعد الدخان من الأحياء الغارقة بخواء جنائزي. راقبت الطائرة وهي تحوم لساعات، ثم هوت وأفرغت ذخيرتها فوق أحد البيوت، لم أستطع استيعاب ما حدث، ولساعات بدا المشهد كأنه هذيان مستمر في كابوس استمر لوقت متأخر من الليل. في صباح اليوم التالي، كنت أراقب الدمار الذي أحدثه القصف. كان كل شيء في المنزل حاراً دافئاً كما لو أن العائلة ما زالت تقيم في المنزل. دمرت الطائرة منزلاً في أحد أفقر الأحياء في مدينة حلب، منزل نهض في عشوائياتها التي جهد أبناؤها لرفع بيوت استمر بناؤها سنين طويلة على هامش المدن، كمنفى دفعهم النظام إلى اختياره والتعايش معه. كان منزلاً يشبه منزلنا في الطابق الخامس بعين ترما، منزلاً من الإسمنت الرخيص، سقت والدتي باطونه بيديها وسكنت إحدى غرفه وهي تعتني بنا، فيما كان العمال يرفعون بقية الغرف الأخرى. كان سكان الأحياء الفقيرة التي تتعرض لقصف يومي يحاولون البقاء قدر المستطاع قرب بيوتهم المدمرة، لكن القصف كان له وظيفتان؛ فهي تنهي حياة الأفراد، ثم تجعل محاولات البقاء في المكان المدمر منفى آخرَ شديد القسوة. يراقبون فيه ذكرياتهم التي تقتلع بالكامل، يجهدون في البحث عنها والحفاظ عليها، لكنها تنفلت من بين أيديهم في طحن يومي لكل ما يشكل الألفة التي تدفعهم إلى البقاء والاستمرار كبشر لديهم القدرة على التواصل والعيش بشكل متوازن.

سقط صاروخ سكود على ظهر الحمرا في المنطقة المحاذية لطريق الباب، لم تقتصر الفاجعة على استشهاد عدد كبير من المدنيين، ولكنها وصلت إلى حد اختفاء حي بكامله. سقط الصاروخ العابر للقارات فوق هذا الحي الفقير، دُمرت أغلب البيوت وسويت بالتراب، وفُقدت عائلات كاملة. ذاكرة جمعية تشارك فيها العديد من الناس يومياتهم أفراحهم وأحزانهم. لم يعد استهداف الذكريات بالشكل الفردي، ولكنه انتقل الى استهداف الذاكرة الجمعية التي تخلق الإحساس بالارتباط والصلة بالوطن الأم. لم تحمل المنطقة المبادة أي فرادة في طابعها ـ لا تاريخياً ولا جمالياً؛ فهي بيوت لأناس فقراء، على هامش المدينة. شهد هذه الفاجعة أبناء البيوت والحارات المجاورة، راقبوا بعيون مفتوحة كيف من الممكن أن ينتفي أي أثر لوجودهم.

بعد تلك الحادثة كنت أفكر: كيف سيستطيع هؤلاء الناس العودة إلى حياة طبيعية فيما لو انتقلوا إلى مكان آخر أو بلد آخر؟ بدا لي أن تدمير الذكريات يدفع بالخوف نحو أقساه؛ إنه يشل القدرة على العودة للحياة الطبيعة. لن نستطيع بعد الآن الانتقال من منزل مؤقت إلى حي مؤقت والابتسام في وجوه المارة، ثم محاولة إخفاء جزء من هويتنا أو الاندماج في هويات أخرى والتعايش معها بسلام داخلي. بعد عدة أشهر أمضيتها في مدينة لا تبعد سوى ثلاث ساعات عن منزل العائلة، وأكثر من أربع ساعات عن مسقط رأسي، بدا أن ثمة طبقات معقدة من المنفى داخل المنفى. لقد بدا شعور المسافة الممزقة التي خلقت في سورية جغرافياً ونفسياً تزداد يوماً بعد يوم. هذه المسافة هي مسافة معكوسة نحو ذواتنا؛ إننا نزداد بعداً عن أنفسنا، نزداد بعداً عن الصورة

المتوازنة التي تخلقها ذكرياتنا. إنه شيء ما يشبه البرزخ الذي لا نستطيع فيه العودة إلى حياتنا السابقة أو الانتقال إلى حياة جديدة.

في إحدى الصباحات الماطرة في حلب، كان الجيش النظامي يتقدم نحو طريق الباب. وطوال العديد من الشهور التي تعرض فيها الحي لحملة شرسة من البراميل والصواريخ، كنت قادراً على النوم بصحبة العديد من الأصدقاء في غرفة هي الأكثر حظاً في النجاة فيما لو تعرضت للقصف. وطوال أيام كثيرة لم أستطع أن أفهم كيف يمكنني النوم من دون كوابيس أو أرق خلال تلك الفترات، على النقيض من الحالة النفسية المختلفة التي تكونت بعد خروجي من سورية بفترات مختلفة. ساعات الأرق الطويلة الكوابيس التي لا تنتهي. الخوف العميق من شيء ما خفي غير واضح المعالم. تشكل لدي في البيت الذي كنت أقيم فيه شعور بأنني في بيت يشبه بيتنا في عين ترما. كان القصف يزداد رعباً، خوت الحارات من سكانها بعد موجة هروب أخرى. كان علينا مغادرة الحي الذي بدا أن النظام سيسيطر عليه بعد عدة ساعات.

لم أستطع تخيل فكرة الخروج من المنزل في طريق الباب؛ تذكرت خروجي من منزل عين ترما من دون أن أعي أنها المرة الأخيرة. شعرت أنني لن أستطيع تحمل المغادرة مرة أخرى، وأنني لن أسمح بفقدان اللحظات الحميمة والأنيسة التي تشاركتها مع العائلة الصغيرة، وهي مجموعة من الشباب الناشطين وأولاد حي طريق الباب، والتي كانت عامل التوازن الوحيد في إحساس المنفى المعقد الذي كنت

أشعر به. شعرت أن هذه اللحظات هي الشيء الوحيد المتبقي لي، أو ربما هي المعركة الأخيرة التي أستطيع خوضها دفاعاً عن شيء ما واضحٍ، وربما دفاعاً من أجل عدم خسارة ما تبقى مني. بدا لي حينها أن الموت هو الوسيلة الوحيدة في حفظ ذاكرتي وذاكرة الزمان والمكان، الموت الذي أستطيع من خلاله عدم السماح باقتلاع آخر لكل ما يشكل هويتي. وعندما أصبح الجيش على مسافة أقل من مئتي متر، انطلق المئات من الشباب حاملين أسلحة فردية للدفاع عن بيوتهم. لم يكن هؤلاء ينتمون إلى فصائل مسلحة. كان أغلبهم قد لزم بيته بعد شعور الخيبة من صراع الفصائل وفسادها في المدينة. مات أغلبهم في الدفاع عن شيء وحيد، هو المنزل الذي لا يريدون اقتلاعهم منه.

كانت البيوت التي تشكل خط الجبهة هي بيوت المقاتلين، كانوا أناساً عاديين قبل أن تدك الطائرات بيوتهم وتحولها إلى ساحة معركة. في إحدى المرات التي كنت أجلس فيها مع مقاتل على خط التماس بين منطقة كرم الجبل وسليمان الحلبي، سألته عن شعوره وهو يعيش وسط هذه الذكريات التي تنتمي إلى أناس عاشوا في هذه البيوت. كيف من الممكن أن تنتهك ذكرياتهم ولحظاتهم الحميمة، والصور المحترقة، والآثار التي تركوها قبل رحيلهم؟ كيف من الممكن خوض المعارك في البيوت والحارات؟ ماذا يشعرون وسط هذا الدمار الذي تحدثه آلة القتل؟ كان أهالي الأحياء الفقيرة الذين حملوا السلاح يُدفعون نحو دمير ذكرياتهم بأيديهم، ومن ثم محاولة حفظها والدفاع عنها. إن هذا المشهد لإنسان فقير حمل السلاح دفاعاً عن منزله ثم حارته ثم مدينته ثم قام بتدميرها بيده، أو كان شريكاً في التدمير،

يزيد من الشعور بالمنفى. لا أجوبة من الممكن أن تختصر الحسرة التي تختزلها عيون تنقب وتعتذر من المكان، ثم تبدو الروح فيها خاوية تماماً.

وصل التغريب إلى أقصاه مع سيطرة الإسلاميين على المدينة، ولاحقاً سيطرة داعش التي كانت تحاول اقتلاع كل شيء من جذوره. في منتصف عام 2014، حاول النظام جاهداً دخول مدينة حلب، فأدار حملة شرسة من البراميل المتفجرة التي كانت عملت على إخفاء معالم المدينة. كان التطرف يغير شكل المدينة ويزيد من قسوتها. أناس غرباء كانوا يغيرون العادات والتقاليد والأعراف التي نشأ عليها هؤلاء وسط دمار هائل ومعارك مستمرة. كانوا يحولون ما تبقى من الحياة فيها إلى ما يشبه الجحيم. لم يستطع القصف على عنفه أن ينال من الصلة مع المكان ولا إلغاء الذكريات والارتباط العاطفي الذي يتيح للمرء الصمود. ومع سيطرة داعش على المدينة، بدأ كل شيء يتغير، وبدأت شيئاً فشيئاً تنهش ذاكرة المكان وتغيرها. كان القتل قد أصبح مجانياً. ارتكبت العديد من المجاز على أيدي أناس غرباء، مجهولين، لكن الأكثر قسوة من كل ذلك هو عدم التعرف على الآخر، عدم القدرة على مشاركته اليوميات والأفكار؛ إنه النقيض لكل ما يمكن أن تحمله النفس الإنسانية. كانت داعش تمثل عنف وقسوة النظام، مضافاً إليها رعب الآخر المجهول.

خرجت من مدينة حلب وأنا متيقن من أنها على وشك السقوط. رحل من يستطيع الرحيل وبقي من لم يكن لديه متسع أو قدرة على الرحيل. اللحظات التي عشتها على

الطريق من حلب حتى الحدود التركية من أكثر اللحظات قسوة التي شهدتها في حياتي، فكل الذكريات الكثيفة التي خلقت بعد تغريب استمر على مدار أربع سنوات في التنقل بين أماكن مختلفة في سورية ومدن عربية مختلفة، كالقاهرة، وعمان، وبيروت. ها هي تقتلع مرة أخرى؛ فلم يعد البيت هو البيت، ولكن أصبحت المدينة هي البيت. كنت أشعر أن مدينة حلب هي منزل كبير استطاع أن يعيد إليَّ التوازن. بدا لي أن صورة العالم واضحة في هذه المدينة، فلا شيء مجمل هنا، لا شيء يبدو أنه واقع افتراضي نعيش فيه مجموعة من القيم الهشة التي تسقط عند أول اختبار أخلاقي، هذا العالم مدمر وهذه الصورة الحقيقية.

أمضيت سبع سنوات متنقلاً بين جنوب سورية وشمالها، ومن عمَان إلى القاهرة إلى بيروت ومن ثم تركيا؛ كنت أحاول جاهداً الهروب من المنفى، من السير على دروب الآلام التي مشى عليها آلاف من السوريين خارجين من منفى إلى منفى آخر لأننا في متاهة لا تنتهي. لم أستطع الابتعاد، واخترت الرجوع إلى بيروت حيث وجدت نفسي عالقاً من دون إثبات للهوية كآلاف من السوريين العالقين في هذا البلد. في بيروت ثمة نوع آخر من التغريب، فبالإضافة إلى حالة الاحتقان والعنصرية وصعوبة الحياة، ثمة صورة مستقبلية لما ستكون عليه سورية، ربما بعد عشر سنوات أو عشرين سنة. ثمة احساس داخلي أن ما حدث هنا «بيروت - لبنان» يحدث هناك في سورية. الجانب الأكثر قساوة الذي يمكن أن يعيشه المرء في بيروت أو في لبنان هو أن ثمة مكاناً يشبه مكاناً في ذاكرتنا، له الألفة والروائح نفسها، لكنه منزوع الروح، منزوع الذكريات. هنا مدينة جديدة نهضت

على ذكريات مدينة قديمة، لكن هذه المدينة القديمة ليس لها أي طابع، والمسألة لا تتعلق بالطابع العمراني فحسب؛ بل تتعلق بذاكرة الزمان والمكان التي قتلت، والتي تدفع ساكني هذا البلد أو هذه المدينة إلى غربة مستمرة حتى في مدنهم وفي حاراتهم. هنا في بيروت، وفي وسط المسافة بين دمشق، حيث تبعد ساعتين عن دمشق، وثلاث ساعات عند درعا، وربما خمس ساعات عن حلب، يتشكل لدي نوع من الغربة داخل الغربة؛ أشبه ما تكون بنوع من الكابوس غير المنتهي. ثمة من اختار عبور البحر والتأقلم، وثمة من اختار البقاء لينتهي مع انتهاء المكان. وثمة «هنا» العالقون في البرزخ كالعالقين هنا في لبنان، حيث تمثل استعادة الذكريات والصور المألوفة والخيبة والإحساس المضاعف بالهزيمة تحت وطأة تهديد دائم وقلق مستمر. إنه نوع من العذاب الذي لا ينتهي، وقد دفع بالبعض إلى الانتحار، ودفع بالبعض الآخر إلى حالة من الهستيريا والفصام، وأحياناً أخرى إلى تخدير واعٍ للذاكرة. هكذا تتحول الوجوه في هذا المكان إلى أشباح من نوع آخر تراقب أشباحاً تموت في بلدها، وتلتقي بأشباح هاربة من منفى آخر وراء البحار. إنه الجانب الأكثر إيلاماً، والوجه الآخر للفقد المادي، هو فقد الذكريات التي يصبح الإنسان بفقدها غير قادر على الاندماج أو التعايش أو الاستمرار في الحياة بشكل متوازن.

البحث عن مدننا
في مدنٍ ومنافٍ أخرى

شهادات أدبية عن المدينة وأحوالها

جمال شحيد، جمانة الياسيري، جولان حاجي، رشا عمران، عدي الزعبي، عروة مقداد

تقديم: حسن داوود